

عائشة وميمون العتبات

خط

الضاحك المضحك

AL-MOSTAFA.COM

لا سبيل ! ..

وصدق القرآن الكريم : كل علم هو علم الأسماء . والله علم آدم الأسماء كلها . لأنها هي العلم الإنساني من مبدئه إلى منتبه .

إلا أنه علم الإنسان ..

وكل علم للإنسان يعرض له النقص من بعض نواحيه ، فإذا قال لنفسه : لا بد لي من اللغة ! فلا ينسى أن يقول لنفسه : نعم . وحذار من هذه اللغة ، فإن النفع منها للعقل عظيم جد عظيم ، ولكن الضرر منها غير قليل وغير مأمون .

من منافعها أنها تحصر المارد للنطق فتحبسه في القمقم المرصود مطيعا حيث يراد ..

ومن أضرارها أنها تحبس المردة الكثيرة في قمقم واحد . فتنتقل مرة واحدة حيث يراد واحد منها ، وتنحبس مرة واحدة حيث تريد أن تطلق منها هذا وتدع منها ذلك .

عودتنا اللغة أن نحسب كل اسم علما على شيء واحد ، وكثيرا ما يكون هذا الاسم كالقمقم الذي يحتوي فيا عشرات المردة بعلامة واحدة ، وما من شبه بينها غير تلك العلامة لضرورة التمييز والتقسيم .

تعودنا أن نسأل : ما العلم ؟ ما الفهم ؟ ما الحسن ؟ ما الضمير ؟ وتعودنا أن نسأل : كيف نعلم ؟ ما وسيلة الفهم ؟ ولماذا نحس ؟ وما بالناس نصغي للضمير ؟

تعودنا ذلك ، وتعودنا أن نجيب بجواب واحد ، كأننا نسأل في جميع هذه الأحوال عن شيء واحد .

وما نسأل في الحقيقة إلا عن أشياء كثيرة تنبئ عنها كلمة واحدة .

ما نسأل في الحقيقة إلا عن عشرين ماردا أو أكثر من عشرين ، يجمعهم القمقم الواحد الذي نشير إليه .

وفي سياق هذه الرسالة - رسالتنا عن حكمة جمع أمير المضحكين - نسأل كما تعودنا من كل كلمة : ما الضحك ؟

ولماذا تضحك ؟

وما الضحك بشيء واحد ..

وما تضحك بسبب واحد ..

وما تفكر في الضحك على نحو واحد ..

ولكنها الكلمة التي لاغنى عنها ، ولا أمان منها كذلك ما لم نعرف سر الرصد المسحور .

وها نحن أولاً في هذه الرسالة نعرف سر هذا الرصد في كلمة واحدة - كلمة الضحك - لنعرف منها أمير المضحكين بين المضحكين ، ونعرف منها أضحيكه بين أشتات المضحكات ..

الضحك ضحك عدة إذا صح هذا التعبير ، وليس بضحك واحد ونحن تضحك لأسباب كثيرة ، ولسنا تضحك لسبب فرد لا يتعدد ، ويوشك أن يكون لكل حالة من حالات ضحككتها التي تصدر عنها ولا تصدر عن حالة غيرها ، كأنها هي لغة كاملة على أسلوبها في التعبير .

هناك ضحك السرور والرضا ، وهناك ضحك السخرية والازدراء ، وهناك ضحك المزاح والطرب ، وهناك ضحك العجب والإعجاب ، وهناك ضحك العطف والمودة ، وهناك ضحك الشجاعة والعداوة ، وهناك ضحك المفاجأة والدعشة ، وهناك ضحك المفرور وضحك المشنوج وضحك السداجة وضحك البلاهة ، وما يختاره الضاحك وما ينبعث منه على غير اضطرار ..

بل ربما كان لكل مضحكة من هذه المضحكات ألوان لا تتشابه في جميع الأحوال .

فالضاحك المسرور قد يكون سروره زهوا بنفسه واحتقارا لغيره ، وقد يكون سروره فرحا بغيره ، لا زهو فيه بالنفس ولا احتقار للآخرين .

والضاحك الساخر قد يضحك من عيوب الناس لأنه يبحث عن تلك العيوب ويستريح إليها ولا يمتنى خلاص أحد منها ، وقد يضحك من تلك العيوب لأنه يتفلسف عن عاطفة لا يستريح إليها عامة بين إخوانه الأدميين ، ولا خاصة في أحد يعنيه من أولئك الإخوان .

والضاحك من عيوب السخف والحماسة قد يضحك من السخف الأحمق أو يضحك من الذي يحكيه في سخافته وحمقه فيعرف كيف يحكيه ، وكلاهما باعث من بواعث الضحك مخالف لغيره في أثره وداعيه ومعناه ..

هذه المسألة وضعت موضع التجربة العلمية بعد انتشار الصحافة ، وتنوع موضوعاتها ، واختصاص طائفة منها بموضوع الفكاهيات والمضحكات ، وتنافس الكتاب في ابتداع فن جديد من أساليب الفكاهة والفحك ، كلما ألف القراء أسلوبا منها وشتموه أو اشتاقوا إلى غيره ، فظهرت الفوارق بين النكات التي تدعو إلى الضحك . وقايزت بأساليبها وعلاماتها ، وأوشك الكتاب الفكاهيون أن يتمايزوا بالتصوف في كل باب من هذه الأبواب ، واستطاعوا أن يفرقوا بينها بالتعريفات أو بالحدود المفهومة . . .

ولعلنا نطالب هؤلاء الكتاب بما ليس عندهم إذا سألناهم أن يرجعوا بهذه الفكاهات المختلفة إلى مصادرها من الطبيعة البشرية والعلل النفسية ولكننا نستطيع أن نعتمد على تجربتهم في التنوع والافتنان ، لأنه عمل يراولونه كل يوم ، ويعرفون خطوات الانتقال فيه من فن إلى فن ، ومن أسلوب إلى أسلوب ، ولم يكن هذا الاختلاف في الأساليب إلا اختلافا في التعبير والتنميق .

ومن أمثلة الاجتهاد في التفرقة بين موضوعات الضحك والفكاهة كتاب مزاج الفكاهة 'The Humour of Humour' مؤلفه إيفان ايسار Evan Esar الذي اشتغل زمنا بكتابة الفكاهيات وتقسيمها وترتيب أقسامها . وأراد بكتابه هذا من عنوانه إلى غايته أن يكون تطبيقا لأرائه واختياراته ، لأن العنوان نفسه يشتمل لعبا بالألفاظ كاللعب الذي يدخل في النكات الجنسية ، لأن كلمة « هيومور » بالإنجليزية تأتي بمعنى المزاج وتأتي بمعنى الفكاهة وتدل على أخلاط الجسم في مذهب الأقدمين كما تدل على وسائل تعديل هذه الأخلاط بالدواء أو بتطبيب الخواطر وتنزيه النفوس .

ولانحصى أقتان الضحك والفكاهة كما شرحها المؤلف في كتابه ، ولكننا نشير إلى بعضها على سبيل التمثيل . وتدع للقارىء أن يقبس عليها من تجاربه ما يشاء .

فمن هذه الأقانين « الملاحظة المزدوجة أو الملاحظة اللاذعة » ومثالها كلمة تقال عن الزواج من أجل المال : « أنه يصلح أبلا لها بسنه ، وزوجا لها بشروته » أو كلمة تقال عن البخيل : « أنه يضع نفوقه في الخشبة ليجد تحته شيئا يستند إليه » .

ومن هذه الأقانين « الأبدية » أو العبارة الشاردة ، والفرق بينها وبين الملاحظات السابقة أنها أقرب إلى المثل السائر الذي يسيل تعميمه ولا يخص أحدا بعينه . وأما الملاحظات السابقة فأكثرها يقال عن الأشخاص أفرادا بغير تعميم ويدور على شئونهم ولا يدور على المواقف والأطوار .

ومن أمثلة النكتة الأبدية أو العبارة الشاردة أن الأخلاق طلاء غسحه الخمر وأن السن تخون أصحابها لأنها تدل على السنين . وأن الحكيم حين تقنعه حكمته بأن يتزوج يصبح الاحمق زوجا وله أبناء . وأن لابس النظارة « منظره بغيرها أحسن ومنظره بغيرها أقيح ! » وأن الأمريكيين أحرار لأنهم « يأخذون » حريات كثيرة ! . . .

ومنها اللفز ، وعماده على المغالطة . أو على جمع التشابهات التي تختلف في الحقيقة بعد اختلاف .

ومثاله أن يسأل السائل : « لماذا وضعوا واشتغلوا على تل ؟ » فيجيب الجيب : « لأنه مات » .

أو يسأل السائل : « ما ذلك الشيء الذي يصنعه الرجل واقفا وتصنعه المرأة جالسة يصنعه الكلب على ثلاث ؟ » .

والجواب : « المصافحة أو تحية السلام عند اللقاء » .

ومن أقانين الفكاهة الجناس اللفظي . وهو يشبه اللفز في السؤال والتورية . . .

يسأل السائل : « ما وجه الشبه بين الفلاسفة والمرايا ؟ » .

والجواب : « الشامل والنظر » !

أو يسأل السائل : « ما وجه الشبه بين الكتاب والشجرة ؟ » .

والجواب : « كلاهما له ورق ! » .

أو يسأل السائل : « ترى هل يحاسب الرجل على قتل الوقت إذ حطم لساعة ؟ » .

والجواب : « كلا ! إذا ضربت الساعة أولا » .

ومن هذه الأقانين المساجلة والمحاورة . وقد يكون السائل فيها هو الجيب .

تقول لى : « لماذا تشرب الخمر ؟ » قل لى ماذا تقترح أن أصنع بها ؟ !

وتسألني : « أي الدجاج أطول رقابا ؟ كيف ؟ ألا تعلم ؟ » الذي مات ! ..

ومنها الظن المختلف وهو يتوقف على الموقف ، وتعدد المشركين فيه .
وجود اللبس الذي يدعو إلى اختلاف الظنون . ومثله لصة عن أربعة في مقصورة قطار : فتاة حسناء ، وامرأة عجوز ، وكهل فرنسي ، وضابط ألماني أثناء احتلال الألمان باريس . ودخل القطار نفقا فسمع نى المقصورة صوت قبلة وصفعة ، ثم خرج القطار من النفق وهم صامتون وعلى وجه الضابط الألماني أثر صفعة . فقالت المرأة العجوز لنفسها : « ما أطهرها من فتاة » وقالت الفتاة الحسناء لنفسها : « عجباً له . يقبل العجوز ولا يقبلني ؟ » . وقال الضابط الألماني : « ياله من فرنسي خبيث .. غنم القبلة ، وغنمت أنا الصفعة ! » وقال الفرنسي : « لقد عجوت بها . قبلت قاهر كفى وصفعت الألماني ، ولم يتهمني أحد ! »

ومنها النادرة ، وهي نكتة لا بد لها من قصة تتعلق بصناعة أصحابها أو بعلمهم وقواعده المتعارف عليها : كان مارك توين - الكاتب الفكاهي المشهور ، يعمل في إحدى الصحف ، وتكاد الديون تستغرق مرتبه ، وكان من عادته أن يهمل كل إنذار يأتيه من صاحب دين . واتفق يوما أن كاتباً من مساعديه كان إلى جانب ، وهو يهم بأن يلقي بعض هذه النذر في سلة المهملات . فتنبه الكاتب قائلاً : « انتظري يا سيدى . فإن في ظهر الورقة كلاماً يقول فيه صاحب الدين أنه سيقاضيك إن لم تسرع إلى السداد » . فقال له مارك توين كأنه ماض في عمله : « ألا تعلم يا صاح أن الورقة التي تكتب على وجهين تهمل في هذا المكان ! »

ومنها الكلمة التي تقال وتفهم على معنيين . أحدهما بسر والآخر يزعم أو يخيف . وتشبهما كلمات الجنس كلما دلت على نقيضين .

يقول الرجل لزميله في بلاد النيام نيام أكلة البشر : « أن الزعيم يريدك للغداء » .

أو يقول فرنكلين وهم يكتبون وثيقة الاستقلال : « يجب أن يتعلق بعضنا ببعض وألا تعلقنا على انفراد » .

أو يقول الشيطان : « الفضيلة في الوسط » . وهو يجلس بين رجلين من رجال السياسة !

أو يقول قذح الماء للبرشامة : « تقدمي وأنا بعدك » .. وفيها مثل لظاهر الشحية وباطن الاشتراك في الهباء !

أو تقول الفتاة لمن يفازلها : « أنا كالقطارة .. إن شئت صرخت ! »

وما أحصاه الفكاهيون المعاصرون من أساليب التعبير الفكاهي أسلوب القلب والعكس . ومن أمثله : « أن الحب يذهب بالزمن وأن الزمن يذهب بالحب » ومنها : « أن بعضهم يحب أن يشاهد الصور المتحركة . وبعضهم يشاهد الصور المتحركة ليحب » ومنها : « أن الإنسان يخلق المشاعب وأن المشاعب تخلق الإنسان » ومنها : « أن من يتعمق إلى أساس الأمور ترفعه الأمور إلى الذروة العليا » ومنها : « ليس الضحك بداية سيئة للصداقة ولكنه نهاية حسنة » .

وتكرار الكلمة في مواضعها فن من فنون الفكاهة . كتكرار ذكر الذكاء في هذه العبارة :

« الفتاة الذكية أذكى مما يبدو عليها لأن الفتاة الذكية لا تبدي ذكائها » .
أو هذه العبارة : « غير المتوقع يقع أحياناً حين لا تتوقع من المرء ما هو خليق أن يقع منه » .

أو هذه العبارة : « علينا أن ننسى أنفسنا لنشعر بالسعادة . ولكننا لا نسعد إذا نسينا أن ننسى أنفسنا » .

والنسيان المعهود في العلماء والمعلمين يضحك أو يحسب من أسباب الفكاهة . وتروى لذلك قصص كثيرة هذه أمثلة منها :

« جلس أستاذ في مكتبه بالمنزل وهو في قلق شديد على زوجته التي أدركها انخفاض . وإذا بقريبة له تفتح الكنب لتبشره بولادتها وتصبح به : « إنه ولد » .. ويكون قد ذهل عما حوله فسالها : « وماذا يريد ؟ ! » .

وذهب أستاذ إلى طبيب فقال له : « أخرج لسانك » ثم قال له : « لسانك في حالة حسنة ولكن ما هذا الطابع الذي عليه ؟ » . فأبتم الأستاذ وقال : « أهو هناك وأنا أحسبني وضعت على الغلاف ! » .

وأكتوبة إيريل وما جرى مجراها فن من هذه الفنون الفكاهية . يقول مارك

10

لهم يا ذا الجلال والإكرام .

۱۔ کسی گیتی میں نہ ہو کہ اس کی طرف سے

25. 10. 1950

וְהָיָה כִּי יִשְׁמַע ה' אֶת הַקּוֹל וְהָיָה
 וְהָיָה כִּי יִשְׁמַע ה' אֶת הַקּוֹל וְהָיָה

— ၇၇၂ —

2. Definition of the problem

... من أجل ذلك ...

[Faint handwritten notes at the bottom of the page]

وَأَمَّا الْفُلُ فَأُرْسِلَتْ بِرَحْمَةٍ مِنَّا لِيُبَيِّنَ مَا بَيْنَ أَيْمَانِهِ هَذِهِ وَأَيْمَانِ ذُو الْأُنْثَىٰ هَذِهِ ۚ

... ..

॥ श्रीगणेशाय नमः ॥

761

وكتب بمطبع الخديوي في سنة ١٣٠٢ هـ

1877

ولمّا جاءه من ربه الموتى

(Faint handwritten notes at the bottom of the page)

[illegible]

الخاصة بوقف على طريقه من كبار الرؤساء وقسمته على رأسه ومشتتة في

[illegible]

من المعلوم انهم يشهدون بالحق والعدل

1. The first part of the paper is devoted to the study of the asymptotic behavior of the solutions of the system (1) as $t \rightarrow \infty$. It is shown that the solutions of the system (1) are bounded and tend to zero as $t \rightarrow \infty$ if the matrix A is stable. The second part of the paper is devoted to the study of the asymptotic behavior of the solutions of the system (1) as $t \rightarrow \infty$ if the matrix A is not stable. It is shown that the solutions of the system (1) are unbounded and tend to infinity as $t \rightarrow \infty$ if the matrix A is not stable.

॥ श्रीगणेशाय नमः ॥
 ॥ श्रीगणेशाय नमः ॥

وہی ہے جس نے ان کو اپنا گھر بنا لیا۔

1991

[illegible]

[Faint handwritten notes at the bottom of the page]

... ..

... ..

ॐ नमो भगवते वासुदेवाय ॥

יחזקאל בן בוזי, רב חסידות סלוצק, נפטר

וְהַיְהוּדִים יִשְׁמְרוּ אֶת הַמִּצְוֹת וְהַכֹּהֲנִים יִשְׁמְרוּ אֶת הַמִּצְוֹת

أبعد بعض المدعوين إلى إحدى الأقسام مع حديقته ، وأجاب أن

ॐ नमो भगवते वासुदेवाय ॥

וְיִשְׂרָאֵל יִשְׁמַח בְּיְהוָה וְיִשְׂרָאֵל יִשְׁמַח בְּיְהוָה

...
...

[illegible]

١٠٠٠

: יצאנו למסענו למדע ולחקירה
 : ונחזור אל המדע והחקירה

[illegible]

ॐ नमो भगवते वासुदेवाय ॥ ॐ नमो भगवते वासुदेवाय ॥ ॐ नमो भगवते वासुदेवाय ॥ ॐ नमो भगवते वासुदेवाय ॥ ॐ नमो भगवते वासुदेवाय ॥

تسبیح حضرت علی بن ابی طالب علیه السلام

١٠٨

החלטתו של בית דין, והוא שיש להחליט על שאלת ההגנה, על פי המצב העובדתי, ולא על פי המצב המשפטי.

1855

[Faint handwritten text]

مجلسه اول در روز شنبه ۱۳۰۲

የገንዘብ ምርት በሰው ኃይል የተከናወነበት

1874

[illegible]

فتقول الزميلة وهي تصنع الجهد في الجواب : « هذا الذي نسميه مبالغة في إحياء الأفراح » !

وتبدأ سيدة من زميلاتها المؤلفة فتسألها : « من الذي ألف كتابك الأخير ؟ إنه بديع » .

وجواب المؤلفة من جنس السؤال : « سررتي وأنه أعجبتك . من الذي قرأ لك ؟ » .

وتعد « المقالب » من بواعث الضحك . وهي الأكذوبة التي توقع السامع في بعض الغرم أو بعض التعب . دون أن يصحبا ضرر أليم . والمبالغة فيها كاختلاق أخبار النعمى . والاعتدال فيها كالذعرة إلى وليمة . ولا وليمة ! أو تقديم أخبار وفيها دواء .. غير مطلوب .

ومن الفكاهة اتباع الحكمة بحكمة أخرى توافق مقدماتها ولا تنحصر في الحسبان . ومن أمثلتها أن الألفة في الحب تولد الاحتقار .. والأطفال . وأن الفتاة التي تشبه الكتاب المقروء توضع مثله على الرف . وأن فحاحة في اليوم تبعد عنك الطبيب . ولكن بصلة في اليوم تمنعها أكيد .. تبعد عنك كل إنسان . وأن اثنين لا زمان للشجار . ولا زمان أيضا للزواج . وأن المال ينطق . والمال يخرس !

والسخرية أحد هذه الألوان . ومن السخرية أن يقول القائل جادا كأنه يعني ما يقول : ما بال فلان ينتقم مني كل هذا الانتقام ؟ إنني لم أحسن إليه كل هذا الإحسان ؟

وذهب فتى إلى شباك البريد . فوجد الموظفتين في شغل عنه بحديث طويل عن زى فستان السهرة الذي كانت تلبسه إحداهما . فتأتى الفتى في الوصف والرجاء . وطلب إلى إحداهما أن تتفضل باعطائه طابعا قرمزي الوسط وردى الخافة منقوش الأطراف والجوانب . ومشغولا كله ولا يساوى مع هذا أكثر من ثلاثة مليعات !

والحاكاة باب من أبواب السخرية . تتشابه الأمثلة عليها . ويدخل فيها التهكم والمجازاة .

خلا أحد المدعوين بإحدى المدعوات في سهرة الرقص فقبلها . واستجابات

لقبلته لحظة غير قصيرة . ثم قالت له بعد أن افترقت شفتاها وشفتاه : « أتعلم إنها أول قبلة رضيت بها في حياتي ؟ » فقال الفتى كأنه يجاريها : « نعم . لأنك على ما يظهر ورثت الشيء الكثير بغير تعليم » .

وتحدث بعض الجلساء في دعوة عامة عن الثروة ووسائل جمعها . كأنه يومهم السامعين أنه من أصحابها . فأتت إحدى الجالسات على سرعة فيهم . لأنه يعرف الكثير عن الكاسب مع قلة ما يكسب !

والنصائح المطردة . مع القياس الظاهر . مع استحالتها بعد التأمل الياسير . حد هذه الأقسام التي اصطلحوا على تقسيمها في الصحافة الفكاهية . ومن قبيلها هذه النصائح :

قل لا لمن يهمون بالزواج .

وقل لا لمن يهمون بالطلاق .

وقل لا لمن يهمون بالموت .

وقل لا لمن يهمون بالولادة .

وتشمس على أسلوب هذه النصائح الهازلة جواب رجل أصيب بالزكام وأشار عليه صديق بوصفة ناجعة . فقال له : « نعم : اليوم أعمل بوصفة جونز . وغدا بوصفة سميت . وبعد غد بوصفة براون . فإن بقيت مني بقية لوصفتك يوم الأحد فهو دورك !

وقد تطرد الوصايا التالية مع هذا النسق من النصيحة :

« لا تطرد الذبابة من جبهة امرأتك بمطرقة !

« لا تقلق إذا علمت أن كل شيء يذهب في الغسيل . حتى البذلة !

« لا تنتفخ وأنت تعلم أن الصفر أسمن الأرقام !

« لا تحمل هم الزبدة . إنك تصنعها من حشائش الأرض . متى تيسرت البقرة !

« لا ترد في بذل النصيحة . لا أحد سيسمعها

« لا تعمل بنصيحة . وأولها هذه » !

وعندهم فكاهة يسمونها فكاهة « قبل وبعد » مدارها على المقابلة بين هذين الطرفين في مسائل الزواج على الخصوص . وهذه أمثلة منها :

« قبل الزواج تقبل الفتاة الفتي لتربطه . وبعد الزواج تربطه لتقبله . »

« قبل الزواج يأخذ الرجل بيد المرأة حياء . وبعد الزواج يأخذ بيدها دفاعا عن النفس . »

« قبل الزواج يقول الرجل لا بد أن ينفذ أمرى فى منزلى أو أعرف السبب . وبعد الزواج يعرف السبب ! »

« قبل الزواج يسعى الرجل إلى المرأة . وبعد الزواج يسعى للمرأة ! »

« قلما يكون الرجل بالمرأى التى تراها فيه المرأة قبل الزواج ، وقلما يكون بالمعيوب التى تراها فيه بعد الزواج . »

« فى بعض البلاد الشرقية لا يرى الزوج امرأته قبل الزواج . وفى البلاد الغربية لا يراها بعده ! »

ويلحق بهذه الزوجيات تهكم المحدثات والمحدثين من بنات « الدقة القديمة » كما يقال فى مصر باللغة « البلدية » . . . ومنه أمثال هذه المقارنة :

« البنات من الدقة القديمة تحمر إذا خجلت . وبناتا المعصرية تخجل إذا احمرت ! »

« والبنات من الدقة القديمة كانت تذهب إلى المدينة وتقف عند جماعة الشابات المسيحيات . أما بناتا المعصرية فلإنها تذهب إلى المدينة ولا تقف عند شيء ! »

« والبنات من الدقة القديمة كانت تشعر بالإهانة إذا عرض عليها الشراب . وأما بناتا المعصرية فتبلع الإهانة . »

« والبنات من الدقة القديمة كانت لا تجسر على تناول يد فتاة . ولكن بناتا المعصرية لا تجسر على تركها . »

« والرجل من الدقة القديمة له رأس يصلح للحسابات . ولكن ابنه المعصرى له عين تنظر إليها ! »

وهم يصطلحون على تسمية إنسان مشهور ينسبون إليه الحكمة التى يخترعونها لساعتها . من قبيل قول الشرقيين « قال الراوى » عند إسناد الكلام الذى يعلم السامعون أنهم مخترعوه .

وأشهر هؤلاء الحكماء المختارين لإسناد الصادق والمدعى حكيم الصين كونفشيوس .

ومن كلامه المزعوم . قال كونفشيوس : « الرجل الذى يسوق بيد واحدة يعظم بالكتيبة » .

وهم يعنون بذلك خطر الزواج . لأن الرجل الذى يسوق بيد واحدة يخاصر امرأة معه فى سيارة باليد الأخرى .

ومن كلامه المزعوم . قال كونفشيوس : « الفتاة التى لها مستقبل تحذر الرجل الذى له ماض » .

ومن كلامه : « الرجل الذى يغازل المرأة على المصعد ليس فى مستواها ! »

ومن الأضاحيك ضرب المزاح الفارغ الذى يشبه ما يسمى فى الرجل العربى الحديث بالدور المجنون .

يسأل السائل محدثه : « ألم أرك فى بلدة بقالو ؟ » .

فيجيبه محدثه : « لم أذهب قط إلى تلك البلدة » .

ويعود السائل فيقول : « ولا أنا ! » .

ويجربى الحوار بين اثنين على هذا المنوال :

- ماذا تصنع ؟

- أبحث عن ورقة ضائعة .

- أين سقطت منك ؟

- فى الشارع الثامن والثلاثين .

- نكتنا فى الشارع الأربعين !

- نعم . أعلم ذلك . ولكن هنا نور !

وحكمة التى « يقلت » منها درسها محسوبة فى هذه الأضاحيك :

تقص المدرسة على الأطفال قصة الحمل الذى لم يسمع كلام أمه فأكله الذئب ، فيقول أحد الأطفال فى براءة أو فى خبث : « والحمل الذى سمع كلامه أكلناه نحن ! »

أو يقول المدرس لتلاميذه الصغار : « إن العصفور المبكر يلتقط الدودة . . . »

فيقول أحدهم : « والدودة المبكرة يلتقطها العصفور » !

ومن المفيد أن نلاحظ هنا أن هذه « التقسيمات » لا تبدو غريبة للقارئ العربي الذي ألم بعلوم البيان والمعاني والبديع . لأن الكثير منها مقدر بتعريفاته وأمثله وشواهد في تلك العلوم ، ومن قارئ عربي ألم بعلوم البلاغة بعض الإلمام إلا وهو يعرف التورية والقيابة والمساكلة . والنهول الذي يراد به الجحد ، وتأكيد المدح بما يشبه الذم . وتجاهل العارف . والإضمار في مقام الإظهار ، وإخراج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر ، والتشبيه الملفوف والمفروق ، والفصل والوصل . والقلب والالتفات والتغليب . والكنابة والتحريف والتصنيف .

كل هذا مألوف للقارئ العربي من بلاغة لغته ، كما يألف من كتب الصناعة اللغوية جميعاً محكم القول في جوامع النكلم والفرائد والأوابد والمثل السائر واللحن الذي يحسب من الألغاز ، والألغاز التي تحسب من ضروب الرمز أو الإيهام والتعمية .

إلا أننا لم نشأ أن نطلق هذه التقسيمات والتعريفات على ضروب الفكاهة المصطلح عليها بين المشتغلين بالكتابة الصحفية وما إليها ، لأن مصطلحات الصناعة اللغوية وضعت في لغة العرب لتمييز درجات البلاغة ومعانيها ، ولم توضع هذه المصطلحات الحديثة عند الغربيين لشيء من ذلك وإنما وضعت للفرقة بين موضوع وموضوع من مادة الصحافة الفكاهية .

وأمر آخر يباعد بين هذه المصطلحات الحديثة وبين مصطلحات علوم البلاغة العربية . وذلك أن المصطلحات الحديثة لفنون الأصاحيك لم تزل على فجاعتها الأولى ولم تبلغ بعد من الدقة في الأسماء والتعريفات والشواهد مبلغ نظائرها في علوم البديع والمعاني والبيان . وقد يختلط بعضها لاتفاقه في مصدر الشعور وأثره فلا يتم التعريف بينهما إلا بحكم العادة بين المشتغلين بعمل واحد يعرفون مواده وأجزائه بالإشارة والنقطة العابرة ولا يلزم أن يقيموا الحدود بينها بالفواصل المنطقية أو النفسانية .

على أن الاختلاف بين عناوين الفكاهات - ولو بحكم العادة - جدير أن نتوقف عنده وننظر ما يليه من التعريفات والتقسيمات التي ترجع إلى اختلاف في أصول الموضوعات أو اختلاف في طبيعة الشعور . وسوف يأتي الوقت الذي نميز فيه بين ضحكة وضحكة كما نميز بين كلمة وكلمة ، ونعني

بذلك تميز الفهم والتفسير ولا تقتصر الأمر على الشعور والتلبية النفسانية ، فإننا الآن نميز بشعورنا بين ضحكات مختلفات كما كان أبائنا وأجدادنا يميزون بينها بتبادل الشعور والتلبية بين نفس ونفس ، وليس هذا ما يعنيه طلاب التمييز بين أفانين الفكاهات والضحكات في الدراسات العصرية ، سواء قصدوا من هذا التمييز تيسير العمل بين المشتركين فيه كما يتيسر للعاملين في حانوت واحد أن يميزوا أنواعه بحرف مرقوم على الرف أو علامة منقوشة على الصندوق ، أو قصدوا من هذا التمييز أن يتغلخوا إلى يتابع الشعور المتعمقة في النفس البشرية ، حيث تصدر المضحكات والمبكميات وتكمن أسباب الفرائد والمألوفات ، وما ينبغي لنا أن نزعج أنفسنا نفوسنا حق فهمها ونحن نجعل الفرق بين ما يضحكها وما يبكيها وما يقع منها موقع الألفة أو موقع الغربة في أعماق الأعماق . .

وربما كان اسم « الضحك » مغرباً بالاستخفاف منافياً للجد في بواعثه ومعانيه . .

ولكن البحث عن أسباب الضحك جد كأصدق الجد الذي يعرفنا بنفوسنا كما يعرفنا بها أعظم العظام وأفدح الحزونات . بل ربما كان الأمر « الحزن » يسير التعليل لانتنا لانحاز فيه ولا يخفى علينا أنه يرجع إلى حب السلامة وكراهة الضرر والإصابة . وربما كان لنا نحن الأدميين شركاء في الشعور بالحزونات بين الحيوانات العليا وبعض الحيوانات الدنيا . لأن الحزن عندها بمثابة رد الفعل الجسداني لكل ألم وكل مكروه . أما الضحك فليس من سهولة التفسير بهذه المنزلة . ولا سيما الضحك الذي يتشعب ويتفرع وتتباعد مصادره من النفس أو تتقارب - مع التفرقة بينها في الأسماء - حتى يلتبس موضوع منها بموضوع وعنوان بعنوان . .

هذه عوارض نفسية يختص بها الإنسان ولا يشاركه فيها حيوان من الحيوانات السفلى أو العليا . بل يعتقد الكثيرون من علماء الأجناس البشرية أن القبائل البدائية من الناس لا تضحك ولا تدرك الضحك . وأن هذه الظاهرة المتبقية في سلم الإنسانية لا تضحك ولا تدرك الضحك . وأن هذه الظاهرة المتبقية في سلم الإنسانية لا تشاهد بين الهمج إلا بعوارض العصبية التي لا تدخل في حيز الإرادة . كأنها ضحكة المفلوج أو ضحكة التشنج . وحتى هذه الضحكات التي تشبه العوارض المرضية لا تشاهد بين الهمج على كثرة

لحملهم يلتفتون إليها ويسمونها بكلمة من كلماتهم القليلة . فهي والتعقيد من الصرع عندهم سواء .

لا جرم يجد الفلاسفة غاية الجهد في النظر إلى الضحك وأسبابه منذ عهد
... ولا يجدون اليوم وغدا في هذه الدراسة بين نفسانيين واجتماعيين
... للفك والآداب .

وتحس في هذه الرسالة نريد أن نعرف « جحا » ونريد أن نعرف الإنسانية
كلها بهذه المعرفة .

وربما كان بعض ما تقدم من التعريفات مفيدا لنا في وضع جحا موضعه من
الحياة الإنسانية حيث كانت في كل مجتمع وكل حقبة وكل عصر وكل
قبيل . فإن بعض هذه التعريفات يرينا أن « جحا » ليس بالغريب المجهول في
بيئة من البيئات التي تضحك كما نضحك وتستغرب من نواجر جحا ويؤاخره
ما نستغرب . وبعض الأمثلة التي تقدمت نستطيع أن ننسبها إلى جحا فلا
تختلف في مصدرها ما ينسب إليه . وهذه إحدى العلامات على سريان
الضحك مسرى اللغة بين بني الإنسان . فهو كاللغة يؤدي لجميع الناس
معاني مشتركة يتقاربون بها على تباعد المنازل والأجناس . وهو كاللغة
يختلف بين وطن ووطن وبين جنس وجنس . كما يختلف بين قائل وقائل
في مناهج التعبير بين المتكلمين بلسان واحد في أسرة واحدة .

وستعرف « جحا » حقا حين تعرف لماذا يضحك الناس عامة بغير
اختلاف . وتعرف لماذا يضحكون خاصة من شيء دون شيء . ومن إنسان
دون إنسان .

وستجد « جحا » واحدا ولكنه « جحا » الناس أجمعين . لأن الناس
أجمعين يضحكون منه وإن لم يظهر في غير موطن واحد أو مواطن متشابهة
تحت كالأوطان الواحد . لأن الإنسان حيوان ضاحك حيث كان . ولعله
ضحك آلاف السنين ولم يفهم بعد أسباب الضحك على جليتها . وسرى .
بعد . مقدار ما فهمه ويفهمه .

وستضحك من بعضها وهي صحيحة أو باطلة . فتعلم من الضحك كيف
تتلقى تلكم الأسباب .

لماذا نضحك ؟

بعض الناس يحبون النكتة ولا يعينهم لماذا يستمتعون بها ، وبعضهم تتم
متعته بها إذا عرف أسبابها .

قلت في الكلام عن سارة وهمام من قصة سارة : « تسرب إلى المنزل
أنباء الأصيل بالاستقراء لا بالمشاهدة في معظم الأيام ، فيقرآن أو يسمعان
بعض الأغاني ، أو يلعبان الدومينة قليلا ، وهي لعبة تحذفها سارة ، ويعتقد
همام أنها أصح الألعاب وأشدها مطابقة للحياة . . فالشطرنج والضامة يعولان
على الخيلة ، وكل شيء فيهما مكشوف بعد ذلك ، والترويع يعول على
المصادفة والذكاء ، وكل شيء فيه مكشوف بعد ذلك ، والورق إما مصادفة
وإما صراع قلما يشبه صراع الحياة . . أما الدومينة ففيها حساب للمصادفة ،
وفيها حساب للتدبير ، وفيها حساب لليقين ، وفيها حساب للظنون ، وفيها
حساب للغيب الذي تجهله أنت وخصمك ، والغيب الذي تجهله أنت ويعرفه
خصمك أو تجهله هو وتعرفه أنت ، وللعيان الذي يعرفه كل من يشاء . ولها
قوانين تمنعك أن تتحرك على هواك ، ولها حرية تمنحك الخيار بين ما في يدك .

« قالت سارة يوما ، بعد ما استعادت شرح فلسفة الدومينة للمرة الخامسة
أو السادسة أو السابعة : « أولا تستمتع بشيء إلا أن تكون له فلسفة » ؟

قال : « لا . أنا استمتع بالشيء ثم أبحث عن فلسفته ، وأنتى لأبحث
عن فلسفته كما يجيل الشارب الكأس في جميع جوانب فمه ولهواته ، كي
لا يبقى جانب من النفس لا يأخذ نصيبه من متاعه ، فأحسه وأعمله وأذكره
وأفكر فيه وأستقصى معناه . . . »

وأقول في صدد البحث عن أسباب الضحك أنني أشبه هماما هذه
الخلقة . وأنتى أحب أن أفهم ما أحسه وأن أحس ما أفهمه . وأنتى جريت
على ذلك في البحث عن أسباب الضحك منذ بدأت الكتابة وتدوين الخواطر
والأفكار بين الخامسة عشرة والعشرين . ولهذا أذكر هذه العادة فيما نحن
بصدده . لأننى إذا مررت بما اعتقدته من أسباب الضحك قبل العشرين وبعد
العشرين وفي خلال النظر والمطالعة والتجربة اليوم - تدرجت بهذه الأسباب
في أطوار طبيعية تعين على المقارنة والتنقيح ولوصول إلى النتيجة . .

كنت لي في نحو السادسة عشرة مفكرة يومية أدون فيها حواطري
... من جمعته بعد ذلك باسم خلاصة اليومية وحدثت منها عند الطبع
... حصصاً التي برسطت تحت الحواصير لا أدكره الآن

في ف. نسب منها عن مسجحات كثيرة من كتبها بأسسها
مصبغة. ولكني لاحظت فيها أن المضحكات أكثر من ضحك ونبأ بعد
المنى في الصفحة السادسة عشرة من النسخة المطبوعة

إن المضحكات ليست بالقليلة. ولكن الذين يحسنون صدقة الضحك
هم التلبلول. وليس من الضروري أن نفتش عن الرجل من أمثال موليير
... من الضحك. بل في كل رجل من الناس - هم وبغيرهم موضع
المفصل. وفي كل عمل موضعاً للكلفة والتمنع. والوداع الناعم أقبال - ولو
كان مفسوراً بالشعبه ذلك الرجل الذي يعرف كيف يعطى إلى موضع العزور
والرياء من أعمال الإنسان. فإنه لا يطق فمه مادام يفتح عينيه.

وهنا كنت أقرن أسباب الضحك بملاحظة النقص والادعاء والغرور والكلفة
التي يحاول صاحبها أن يحدد الناس عن الحقيقة. وهي واضحة لمن يلتفت

ولا أذكر أنني تحررت، الترتيب عند طبع الحواطير والمفكرات. ولكني أجد
في الصفحة الثالثة والأربعين هذه الخاطرة عن الضحك. وفيها أقول إن
«للمضحك هذه أسباب أكثرها يدور حول محور واحد هو الاعتدال بأنفسنا.
أما ب. نحسه من كمالها أو بسلامتنا من النقص الذي نكتشفه في سوانا.

«ولما كان الإنسان لا يضحك إلا سروراً برجحانه فهو يضحك في الأحوال
التي رجحانه فيها معروف غير محدود. فالرجل المعروف المكانة يضحك
من تصرف الصعلوك الوضيع وإن كان مضحكاً في ذاته. إلا إذا كان يستخر
من أهل حبة ليباهي بطقته أو من أهل بلاد ليباهي بسلامته.

«وقد يضحك الإنسان من نفسه إذا كان الاستهزاء لا ينال وحده.
فلما كان ملوك أوروبا وأمراؤها وسواسها وقوادها محتتمين في سنة ١٨١٥ في
ميينا وهم واثقون أنهم أحكموا الشبكة على بونايرت وقد جلسوا يصلحون ما
أفسده ويعيدون ما درسه من معالم أوروبا - أعلن في المجلس. أن الرجل قد
أفلت من جزيرة البها وأنه قد عاد ثانية لإمبراطوراً على فرنسا. فوجعوا هنيهة
ثم ارتفعت لهم ضحكة طويلة عالية كأنما يقول كل منهم: إن هذا
الكورسيكي لم يعث بي وحدي، بل عث بنا جميعاً».

ويلى هذه الخاطرة عن الضحك خاطرة عن البكاء قلت فيها إن الإنسان
«يبكى لعبير ما يضحك له: يبكى حين يظهر به النقص والعجز ظهور لا
سبيل إلى لداجاة فيه. يبكى في الموضع التي يشعر نديها بالقيهر التام
و تحس له تحرده من الحول والقوة حيالها.

«في تلك الموضع يقول المسلم متمثلاً: لا حول ولا قوة إلا بالله. كأنه
لا يريد أن يكون ضعيفاً إلا أمام الله الذي يتساوى الناس عزيزهم وقليلهم في
الضعف أمام حوله وطوله. والأطفال المستضعفون أكثر الناس بكاء لأنهم
أدعم انتذاراً... على أن عدم البكاء لا يفيد في أكثر الأحيان القدرة على دفع
حسب. فمن من أصحاب المظاهر والأبهة من يترفع عن البكاء ويتكفب الجلد
والسكون حتى في المفجائع القادحة كأنهم يأبون الإقرار بالانقهار على كل
حال»

الضحك والبكاء نقيضان

في هذه الخاطرة حسبت أن الضحك والبكاء نقيضان. وأن الإنسان يبكي
لتغير ما يضحك له. ومدار الضحك والبكاء معا على الغبطة بالنفس أو
نقيضها، فإذا اغتبط الإنسان بنفسه ضحك وإذا شعر بالمهانة والنقص
بكى

وبست هذه المقابلة الصحيحة في جميع نواحيها. نحن لا بضحك
كل شيء لا يبكينا وقد يكون الشيء مضحكاً ومبكياً كما يقول أبو الطيب.
وكم ذا بمصر من المضحكات ولكن صحت كالك

والأصح أن الضحك لغة تعبر عن كثير من الحالات كما قدمنا في الفصل
السابق. وليس من اللازم أن يقابله البكاء في كل حالة. وقد قال الشاعر
بيرون وغيره: «إنني أضحك لكى أبكى». كأنما يقولون إن الضحك بدل
من البكاء في بعض الأحوال. وبشبه هذا من بعيد قولنا في تلك الخاطرة أن
بعض الناس يتكفون الحقد والسكون حتى في المفجائع القادحة كأنهم يأبون
الإقرار بالانقهار

ويقول إنه شبه بعيد... لأن الذي يضحك «لكى لا يبكى» يضحك حقاً
ولا يتكفب الجلد. بل يقتر على الضحك لأنه يكشف من أسبابه ما ليس
يكشفه غيره. أو لأنه يوسع النظر إلى المسألة ولا يحصرها في أصيق حدودها.

وهو صاحبك لأسباب أوسع من الأسباب التي تبكى غيره . وإن لم تتنافس هذه الأسباب وتلك الأسباب .

وكان آخر ما دونته في خلاصة اليومية عن الضحك كلمة في الصفحة ١٠٠٠ . حين . فحاولا أن قوة الاستحسان في الذهن لها شأن في الشعور بالضحك وغيرها . . . فمن أهل هذا الخاطر السريع من تبلغ به قوة الاستحسان أن يستحضر أمرا مضى فيضحك أو يبكي كما كان الأمر قد وقع له فعلا في ذلك الحين . . .

وفي ختام هذه الخاطرة أقول إن « الرحمة ليست إذن حيلة اخترعها البشر ، بل هي طبيعة من طائع . . . » . . . وحيث فيه وبين حيوان فرق بين دماغ ودماغ . فذهن الإنسان لا يركب أحدهما تشبيه بالثب . . . وذلك ما لم يصل إليه الحيوان . . .

وحيث هذه الآراء في مجموعها أن الشعور بالضحك انغمسات مدركة إنسانية وجدت في الإنسان ولم توجد في الحيوانات لأنه يدرك المشابهة ويحس بالتعاطف ويستدعي الخواطر من قريب أو بعيد .

منه السحرة

ولست أحصى تطور هذه الآراء خلال الفترة التي تلت طبع « خلاصة اليومية » سنة ١٩١٢ .

ولم أقصد خلال هذه الفترة إلى كتابة شيء أبسط فيه القول عن أسباب الضحك في عمومته . وإنما كنت أعود على الموضوع كلما استدعاه التعقيب على مسألة تمت إليه . كسخرية أبي العلاء والصور الفكاهية في المرأة من تأليف الأستاذ عبد العزيز البشري رحمه الله .

فابتدأت القول عن ملكة السخر عند المعري سائلا : « لم يسخر الإنسان ؟ » ثم أجبت قائلا : « إنه ينظر إلى مواطن الكذب من دعاوى الناس فيستهم . وينظر إلى لحاحهم في الطمع وإعانتهم أنفسهم في غير طائل يسيم وهذا هو العيب . وذلك هو العور .

« فالعيب والغرور يابان من أبواب السخر . بل هما جميع أبوابه كافة . وكل ما أضحك من أعمال الناس فإنما هو لون من ألوان الغرور أو ضرب من صروب العيب ، وكثيرا ما يلتقيان . فإن الغرور هو تجاوز الإنسان قدره والعيب

هو السعي في غير جدوى . ولا يكون هذا في أكثر الأحيان إلا من احتزاز من المرء بنفسه وتعد منه لطوره .

« الناس يطمعون في ما لا يدركون . فهم يطمعون أن الغرور والعيب مادة الضحك وحرثهما من أن يتفريخ منها كل مضحك من الأعمال والأقوال . ويحربون ذلك كل يوم في مداعباتهم لصغارهم ومنتحاتهم لقوة أطفالها . يقبض الرجل كفه لابنه الصغير على غير شيء . فيأخذه بأن يفتحها ويعد به لكل ما يجد فيه إذا هو قوى على فتحها . فيجاهد الطفل في ذلك ما يجاهد : يقوم ويقعد ، ويشد ويحتد ، ويلتوى ويعتدل . ويرفع أصبعه بعد أصبع . فإذا الذي رفعه قد عاد فأطرق مرة أخرى ، ويعبى الجهد فيركب على الملأ واخذبحة ، وهو في كل هذا يحسب نفسه قادرا على أن يغلب أباه عوة وقسرا أو يغلبه خديعة ومكرا ، وهذا هو الغرور .

« ثم تلين تلك الغيضة فيفتحها فإذا هي خاوية وإذا بذلك العناء الذي أجهده ويهره قد ذهب سدى ، وهذا هو العيب ، ومن هذا وذاك تضحكنا نضونة ونحسا عرابها وكرباؤها ونسجدها سلة ولهو . ولكن هل يصحك من الكبار شيء غير هذا ؟ وهل مهازل الحياة ومسائر التمثيل إلا صورة مكبرة من هذه اللعبة الصبائية وسداجة مركبة من هذه السداجة البسيطة ؟

« وإذا كان هذا معدن السخر وأصل الدعاية فما أجد رجلا كصاحب رسالة الغفران أن يكون ساخرا ؟ بل ما أجد له ألا يكون له عمل في الحياة غير السخر ؟ إنه رجل استخف بالحياة جمعاء ، وهانت عليه الدنيا بما وسعت ، فما من دعوى من دعاوى الناس تنزهه عن الغرور في اعتقاده ، وما من غاية من غايات الناس لا تنتهي في تقديره إلى عيب فارغ وخديعة ظاهرة : كلهم مغرور وكلهم عايب متعلق من الأقل بل مثل تلك القضية التي يعيبه أن يفض أصبعها منها . . . حتى إذا فضها أو خطر في وهمه أنه فضها لم يجد ثم شيئا . أو وجدها ملأى بما يشبه الفراغ سخية بما ليس يختلف عن الحرمان . وكلهم محتقب عدة لا تجمع ومتقلد سلاح لا يصيب :

ورب كمي يحمل السيف صارما

إلى الحرب والأقلار تلهو وتسخر

لا . بل هبه وصل بسيفه الصارم وقاتل وظفر وسلم ، فمادما عساه يفنم ؟

الفيلسوف الباكي والفيلسوف الضاحك

وقال أن أحد في تحليل آراء افلاطون وأرسطو لاسي من السابقين لهما
في حكمة السادة اسمين متماضين كـ كلاهما مدة من مـ
بحث وشهدا من الشواهد التي يسوقها الثعوب متعرفاته وتقسيماته
وهما الفيلسوف ديمقريطس والفيلسوف هيرقليطس الولود في القرن الذي يليه
والأول كان يلقب بالفيلسوف الباكي لأنه كما رعموا كان دائم السكاء
لأنه عين ولا يستسم له ثعر . ولا يراى عينا على قومه ما صنعوا وما
صموا من أمورهم العامة والخاصة .

والناسي كان يلقب بالفيلسوف الضاحك لأنه كما رعموا كان دائم الضحك
لا يكتف عن الابتسام أو القهقهة ولا يكره غضب من خطوط حل أو هان
وقد قال جوفنان الشاعر اللاتيس الساحر أن العجب لهيرقليطس أعظم من
العجب لرملة . فإن دوام الضحك - ضحك أو مكلفا - لا يثق على أحد يريد
، وأما العجب كنه فمن ذلك الفيلسوف الذي يحد في عيه معيا لا يقبض من
الدموع ويحزن جدا أو يتكلف آخر غملا ولها حينا وحده مع الناس .
والقصة كلها « مزدحمة » بشواهد الضحك ومعارض البحث في حقائقه
وأكاذبه .

فمن الرجال يا ترى أدعى إلى الضحك عند الناظرين إليه ؟ ..

أنصحك من دائم البكاء أم نصحك من دائم الابتسام والقهقهة ؟

يحيل إلى الأكثرين أن الرجل الذي لا ينقطع نكاؤه أدعى إلى الضحك من
الرجل الذي لا ينقطع ضحكه وابتسامه . وأنها - بعد - موضوع صالح جدا
للدعابة والسخرية .

وأول ما يرد على ذهن من أسباب ذلك أن الضحك الدائم والسكاء الدائم
كلاهما غير معقول

وهنا نذكر أن الإنسان حيوان ناطق وحيوان ضاحك وأنه استأثر بالنطق
بأنصحك ، لأنهما مقياسان مشتركان للعقل وللمعقول . وهما نذكر أيضا
- السكينة وسيلة لإظهار الخلل المنطقي وإن كان الفرق بينهما أن السكينة
- عند بظهار الخلل وأن الدليل المنطقي يسترسل في إظهاره بغير مفاجأة .

ثم يرد على ذهن أن الضحك الدائم والبكاء الدائم كلاهما يطرأ وخروج
من الجسد إلى ما عداه ، وما عدا الجسد يلتقى بالضحك ويرى بعض
الطريق ..

وغنى عن القول أن الفيلسوفين لم يكونا على الصفة التي نعهدها من كلمة
الفيلسوف الباكي والفيلسوف الضاحك ، وأنها تعرضت في
الوصف لأنهما مبالغان أراد الناس أن يكشفوا هذه المبالغة بهد موهلا بها إلى
عينها المستحيلة ، وصعد لها بذلك بوصف صورة هزلة من الصور التي
يتعمد فيها الرسامون الفكاهيون إبراز الملامح الشاذة بتكبيرها والخروج عن
جميع مألوفها

ولقد كان هيرقليطس يترجم عن سخطه أحيانا بحركات من به ليست
من البكاء ولا الحزن في شيء . فكان يلعب مع أطفال نبيه - شيوخ
فيجيبهم بأن الأطفال أ عقل منهم في تدبير اللعب . لأنه - يصعوا في
الاعيينهم ماصعه الشيوخ المحكون في أحق الأمور بالحد والرصد .

وكان ديمقريطس يسبح في الأرض من بلاده إلى مصر والخمسة وفارس
والهند وكل قطر معمور . وكانت الدنيا على أيده قائمة قده تهون فيها
مصائب الأحاد إلى جانب المصائب التي تحيق بالبول وأشد موب ، فكان
يضحك من أولئك الذين يسلمون للأحرار ولا يعسرون ، حولهم من
عدادات الرمن وصروفه حيث ارتحل وحيث أقام ، نفس من بواقر حراته
بالسخرية أنه جترأ بها على « دارا » حمار القوس وهو يسبح ، بلاده فإن
هذا الجبار أحزبه أن تموت له جارية يحبها فوعده ديمقريطس - إحيائها بعد
دمها ، وقال : الأمر لا يتصلب أكثر من كثافة ثلاثة أ - على القصر
منعود بجارية إلى الحياة ، وسأله « دارا » في لهمة « وما يكون هذه الأسماء »
فأجاباه الفيلسوف وهو يصطنع الجد : « أسماء ثلاث لم يه « ادوا أحدا من
الأعزاء » .

وكان هذا هو العراء .

ولاريب أن المديهة الإنسانية كانت من قبيل الحديد الد - عمل الحديد
فهو التي لقي منها الفيلسوفان جزءا من حسن العمل - كلاهما من
قومه فأرسله قومه في التاريخ على ذلك « الكاريكاتور » . صاحبك دائم
الضحك وبالك دائم السكاء .

وهذا أيضا باب من أبواب المضحكات التي اطوت عليها قصة الفيلسوف :
من الصورة البيزية أو الكاريكاتور .

ثم يحى الشاعر الساحر جوفنا فيعمض باختياره عن هذه المبالغة لأنها
« الناقية » كما نقول في السكتة العربية ، وما كان الشاعر الساحر أن
يأتيه هاتين الصورتين ثم يردعهما إلى سواء الخلة لصيغ منه المحر
انصاح بلهكم على الموصوفين والوصفين

فلسفة الضحك

عنى أن هذين الفيلسوفين المضحكين قد وجد فلسفة الضحك من سرتيما
« سميت بذلك لم سروره تلك الفلسفة من عقلين كبيرين كعقلى الفيلسوف
فلاطون وتلميذه الفيلسوف أرسطو وهم «عصم فلاسفة اليونان» ولم يعرض
لفلسفة الضحك بعدهما عقل أكبر من عقليهما إلى اليوم

وكان خليف فلاطون وأرسطو أن يفسدا إلى جوهر الموضوع في فلسفة
الضحك وأسببه هو أنهما قصدا إلى الموضوع في صميمه ، وأرادا أن يستوعبا
التفويض والاحتمالات في أسس الضحك ونوع المضحكات ، ولكلها لم
يقصدا هذا المقصد ولم يتكئما به إلا عرضا في سياق البحث عن المدينة
الفلسفة والبحث عن الشعر وأقسام الروايات الشعرية .

فلاطون ذكر المضحكين والمضحكات وهو يبحث عن مكائدهم في مدينة
الفلسفة أو جمهوريته المثالية التي أراد أن يقصرها على الأفاضل والأماويين وأن
يحذفها عوارض القصد والرديلة ، فبدله أن الشعر موكل بالجناب الضعيف
من الإنسان بغير تفرقة بين شعر المأساة وشعر الملهاة .

فالإسكان الكريم يأبى أن يستسلم للسكاء إذا أصيب في عريض عليه ولكنه
لا يبالي أن يبكى وأن يحزن إذا رأى هذا المنظر معروضا عليه في رواية فاحشة ،
لأن السكاء يحدده في هذه الحالة ويوقع في روعه أنه يبكى لعبير مصناه
ويعلب على نفسه في سبيل غيره

والإنسان الكريم يأبى أن يفوه بالأضاحيك أو الخبائث المضحكة ولكنه
يستسلم للضحك إذا سمعها محكية في رواية هزلية يمثلها المرحيون أمامه
وليس بالحسن على كل حال أن يكون في الجمهورية الفلاسفة إسكان يعذب
عنى وقاره ضحكا أو بكاء بله الأناسى الذين يصورون الأرباب في عقليين

معلوبين على هذه الصورة ، ويقول أفلاطون إن الإنسان الكريم لا يعرف أحد إلا
بالهزل وأنه من الحسن أن يشهد مسطر اليه من العبيد : «أخواء لمسحربين
ولا يعمس فيها نفسه» وقد أتى على المصريين وأسماء يعمسون الأسماء
بدمسى ورفص فدمى شاعرنا السككة مكبيه لاستحباب لشعراء محط
الأحلام بالأغاني المبتذلة والقصائد الموزونة على رقص الحزنة والمجون ، وقد
كانت خلاصة وأيه في كتاب الجمهورية وكتاب القوانين أن الشعراء يحسنون
صناعة الشعر ويستحقون من أجل ذلك أكاليل العار وتكتهم بلبسونها
ويخرجون من المدينة الفاسدة إلى حيث يشاؤون .

ولم يذكر أفلاطون سبب الضحك إلا في كلمات قليلة خلال هذه المناقشة
الأخلاقية ، وهو يرى في تلك الكلمات أن الضحك مرتبط بأخيل الذي
لا يسمع مبلغ الإيذاء ، وأن الشعراء يضحكون حين يضحكون أولئك الجهلاء .
ويكتمهم - صرخوا موضوع لمحة أو المأساة عظموا الضحك وجمعوا رواياتهم
حكاية لأعمالهم ، فلا آمن لهم في محاكاة الجهل ولا في محاكاة الطغيان .

وأرسطو أدق من أستاذه في تعبيراته عن أقسام الشعر لأنه وضع فيها مبحثا
خاصا يتبع فيه المسرحيات المضحكة من أصولها منذ كانت صرير من الهجاء
والأغاني الشهوانية إلى أن أصبحت موضوعا للإضحاك والتسلية ، ولهذا
جاءت في الترجمات العربية باسم الأهاجي والتهريجيات ولم يتدعوا لها
اسما يقابل اسم « الكوميديا » كما صنعنا في العصر الحديث إذ سماها
بعضهم بالمهزلة وبعضهم بالدهاة وعربها بعضهم بلغة اليونانى سماها
الكوميديا

وعند أرسطو أن المضحك ضرب من النميم أو المشوه لا يبلغ درجة الإيلام أو
الإيذاء ، وهي بيعة مسبوقة إليه من رسالة مقطوعته طبعها كيبل Karbel ،
لأن النفس المطبوعة على الرحمة أو على حسن الذوق تجد في المأساة والملهاة
مصرفا ما تطوى عليه من العطف والشوق إلى الكمال وحسب التشويه

وكلا الفيلسوفين قد تطرق إليه الخطأ من فهم المأساة والملهاة على أنها نوع
من التقليد والمحاكاة ، لأن الشعر المسرحى يعرض المواقف بتمثيل أناس
يحاكون المصابين بها في حركاتهم وأقوالهم ، وكذلك يعمل بالمضحكات
والملهيات

وأفلاطون من أجل هذا ينزل بالمقلدين إلى الدرجة الثالثة ، فيقول إن

١٠ - فيها ثلاثة أصعافها من المراجع المتفرقة عن ملسمه المضحكات عامة
١١ - من موضوعات الفكاهة والنكتة في مزاج الأمة أو تلك أو في آدابها
١٢ -

١٣ - هذا الإفراط في الكتابة عن الضحك إلى باعثن جديدين في
١٤ - عصبي حديثة : أحدهما نشأة علم الذوق أو علم الجمال الذي ينظر في
١٥ - من الجميل والحليل والمضحك كما تعرض الفنون الجميلة ولا سيما
١٦ - وكأما كان اهتمام المحدثين بالتمثيل ورواياته وأدواره تجديدا لاهتمام
١٧ - وأرسطو بالتراجيدية والكوميديّة وملكات الشعراء الذين يكتبون في
١٨ - والمضحكات والملاحم الكبرى عن الأرباب والعبادات وما استطردت
١٩ - من موضوعات لا علاقة لها بالدين وقد تناقضه وتخالف الأدب الواجب
٢٠ - معبودات وشعائر العبادة . فإن عودة الأب المسرحي في العصر الحديث
٢١ - د - دعة البحوث الفنية والفلسفية في الموضوع من جميع جوانبه وأطرافه ،
٢٢ - بحث فيه عن المضحك والمكسّر والخس والتنجيع معروفا بالبحث عن
٢٣ - نفس وغداسة في شعور الإنسان وفي الكائنات التي يقدسها ويرتفع إليها
٢٤ - الإجلال والابتهاك . واستدعى تمثيل هذه الكائنات شعرا ونحنا وتصويرا أن
٢٥ - تمنع لها خمود والتعريفات وتعام المواصل بينها وبين ما ينتسب بها من
٢٦ - التشابهات أو التناقضات .

هذا أحد الباعثن الجديدين إلى إفراط المحدثين في الكلام على الضحك
وعلل أسسه وتطبيقه على الفنون المتحددة في الرسم الحديث

أما البحث الآخر فهو شيوخ البحث في التطور ومذهب النشوء فإن
هذا المذهب يفسر تعبيرات الإنسان عن خواجه وعواطفه بما يوافق طبيعته
الحيوانية . ويتقصى وجوه الشبه ووجوه الاختلاف بينه وبين سائر الأحياء في
١٥ - التعبيرات ، ويراقب ملامحه ليربط بينها وبين وظائف الجسدية وله عدد
١٦ - الوصائف لئلا تكون الداحية والعوامل الخارجية

ولا يسمع لإنسان إلا أن ينتم لتناقض النتائج التي وصل إليها أقداب هذا
المذهب بعد بحثهم في ظاهرة الضحك والفكاهة فإن العالمين العظيمين
الذين يواب - يعبر أسماء بينهما - إلى تحقيق طواهره وشواهده قد دها إلى
١٨ - مسرفين المثبتين في تحليل الضحك والفكاهة .

فمن رأى المرء رسل ولاس Alfred Russel Wallace

أن الضحك وسائر الخصائص الإنسانية التي ينفرد بها النوع الإنساني
لا تقبل التفسير بالانتخاب الطبيعي وتطور أنواع الحيوان . وهو يتساءل كيف
فسر لنا الانتخاب الطبيعي ملكات الرياضة والموسيقى والإحساس بما فوق
العصبي ؟ ويعود مستو إن ملكة الفكاهة من هذا الطراز بين الخصائص
الإنسانية ، لا بد تحتاج جميعا إلى تفسير غير تفسير لصراع على الحياة
وتنازع البقاء ، ولو كانت من هذه الأسلحة في النوع الإنساني لما كان مفهومها
كيف يتجرد منها معظم الناس ولا تتوفر لغير العدد القليل منهم في أرقى
الحضارات . ولا كان مفهومها كيف يتجرده منها المهنج والأوائل العطريون كما
يحدث منها الأكثرون بين المتحضرين . فهي كما قال في تطبيقه المذهب
الدارويني على الإنسان أخلق بأن تفسر بالملكة الإلهية التي يختص بها الخلق
بعض الطبائع الموهوبة . ولن تقل التفسير بغير ذلك ولو باعتساب شديد

ومن رأى ديون أن الضحك قد يوجد مجرد عن التفكير كما يلاحظ على
السهاء وصغار الأطفال الذين يصحكون ليعبروا عن حالة الرضا والارتياح
ولا يصحبون ذلك بفكرة أو خاطرة ذهنية . والأصحاء من الراشدين تعتبرهم
حالات الضحك لأسباب غير أسبابه في الطفولة . ويصدق هد على
الضحك ولكنه لا يصدق على الابتسام . وكأما يعبرون بالضحك عن حالة
مقابلة البكاء الذي يقتنن بالشدة والكابة العقلية كما يقتنن بالخوف
والغضب ، ولعل شيئا من القرابة المفاجئة مع شيء من الشعور بالتفوق هو
أشيع الأسباب لضحك الكبار الراشدين . ومن الواجب ألا تكون الظروف
على جانب عظيم من الخطر والجسامة . فإن الرجل الفقير - مثلا - لا يتطر
منه أن يضحك إذا سمع فجأة أنه كسب مقدارا كبيرا من المال ، ولكن العقل
إذا هاجه الشعور بالمسرة وطرأت عليه خاطرة صغيرة غير متوقعة فللنشاط
العصبي يفرح عن نفسه بتحريك العضلات تلك الحركة التشجعية الخفيفة
التي سمىها الضحك

قال في كتابه عن تعبيرات العواطف في الإنسان إن اخود الألمان أثناء
حصار نابرس كانوا يندفعون إلى الضحك لكل تهاة من تهاات المكتة بعد
طول للعرض للخطر الشديد . ويقول مستر هنتون من سان فرانسيسكو أنه كان

يتناوبه الصياح والصحك وهو على التلال عند الباب الذهبي معرضاً لأدح
الأحظار . وهكذا يشاهد على الأطفال الصغار وهم يهيمون بالبكاء أن بكاءهم
يحول إلى ضحك حين يطرأ أمامهم طارئ غير متوقع ، بما يفهم منه أن
الضحك يفيدهم في تصريف فيض الجهد العصبي الذي يعسونه على تلك
الحال .

وينظر داروين إلى أسلوب الجاز حيث يقول القائل إن الخيال دغدغته فكرة
مضحكة فيلاحظ أن دغدغة الخيال ، مثله لدغدغة الجسد ، يتخذ المثل من
ضحك الأطفال و « تشنج » أجسامها الصغيرة بفعل الدغدغة ثم نلاحظ أن
القرعة العليا تبدر منها أصوات مرعدة في مثل هذه الحالة ، ويعود فيفرق بين
الضحك من فكرة مازحة والضحك من أثر الدغدغة إلا في مر واحد هو أن
يكون الفكر في حالة راضية ، فكما أن الطفل يصيح ولا يضحك إذا دغدغه
رجل غريب واشتد عليه حركة الدغدغة كذلك ينبغي أن يكون الفكر بعيداً
عن الحوة والشعور بالأكسرات والاهتمام ، ويحدث في الدغدغة الحسية في
المواضع التي لا تعرض كثيراً للمس ولا يكون موضع الدغدغة معروفاً قبلها ،
وكذلك تحدث الدغدغة الفكرية من خاطر غير معهود ولا معروف قبل ذلك ،
ويبدو أن عنصر الطرود أو المناقرة الذي يجري في سياق التفكير هو العنصر
العوى في تكوين المضحكات .

ثم يراقب داروين عوارض الضحك على الوجه والجسم ويحصبها إحصاء
دقيقاً في تناوبها على حسب الراحة أو تعب في الشعور ، ويقرر أن الشعور
العتيف كله متخذاً تعبيراً واحداً في حالتى الحزن والسرور وأن مشاهدة ذلك
ميسورة لمن يراقب العصائيين (الهستيريين) والأطفال لسرعة تأثيرهم بأنواع
الإحساس ، فإنهم يتراوحون بين الضحك والسكاء في الوقت الواحد ويستقلون
من الشعور إلى نقيضه لأنهما عندهم متقاربان . وشأن القبائل العظمية عند
داروين كشأن الأطفال في هذه الحصلة ، لأنه رأى في جزر ملقة نساء يبكين
إذا أقرين في الضحك ، وروى أقوال السائحين عن سكان استراليا الأصلاء
بهم يصغرون ويصغفون وتغرورق أعينهم بالدموع وهم مرحون ضاحكون . ثم
قال إن الاستراليين والأوروبيين يتشابهون في ضحكهم جميعاً من رؤية عذابة .
ومن القبائل القطرية في جزيرة سيلان أناس لا يضحكون لمنظر قط من المناظر

المضحكة . فيما رواه هارتشورن
مستغربين : وما الذي يدعو إلى
الثناء والضحك في جميع الأمم يجرى
أحد خامس في الحركات أو المعاني يجرى
وظاهر من دراسة داروين كلها للتع
تواقتته إلى العوارض الجسدية التي ت
حس في بعض الأحيان ، والعور
لأخرى التي لايسهل ضبطها وتعميمه
لمشركة بين الناس من جانب وبين السر
وهو على خلاف زميله في مذهب
بالتعميم والأشياء الشائعة دون تلك
مرية محدودة لا يصرح بنزع النقا
موسيقية وما إليها . فسم نعط در
التفكير كضحك الأطفال والعصائير
ملكة الفكاهة العالية التي يمتاز بها
عدد العاقرة الذين يكشفون خفايا الج
ويعلمون الناس كيف يفهمونها ويدرس
للكتيرين أن يحاروهم على فهمها وإدر

والسرعة ، لوحادية هي سر الـ
العالمين الكبارين . هداروين بحث
موطن الشبه بين أرقى الأحياء وأما
بوعدة العوارض الجسدية التي تصا
المشاهدات الحسية . ويعتبه أن يراق
بعض المواضع في أحدها باللمس
وكل هذا لا يفسر المذكة التي يع
يتفرد بها آدميون بل يعقد بها
تنحبه إلى الإيمان بالروح الإلهي وم
كلما تهيأت لها بهداية السماء

بهم يقولون رد سألوا
هذا أو ذاك ؟ . . . إلا أن
واحد فلا يستطيع وضع
بدواعي الانتم
ة ، حيوانية أنه يتحبه
الإنسان وقد تعم بعض
أدق لديه من العوارض
بذلك تعبيرها بالامفعالات
لعلماء من الجانب الآخر .
السر . السر ولاس . موكل
ية نتي يرى صاحبه أنها
الإحراك الرياضى والبداية
من الضحك التي يقل فيها
العتريه . يرتفع ولاس إلى
مع فلما يزيد عددهم على
وذلك النسب الموسيقية .
ولهم ويصاثرهم فلا يتيسر

المنظرة إلى المضحكات بين
لأنواع الحيوانية فيهبط إلى
مقد الصلة بين هؤلاء وهؤلاء
من تأثير الدغدغة أو تأثير
دغدغة في القرعة التي تنأثر
في غير المالكوف .

السر يعلو بها إلى الطبقة التي
لأن نزعته الوجدانية
يصها على الأرواح الإنسانية

الشعور بالموقف ولا يدع فيه بقية للانتقال منه والانتقال إلى غيره . فإن هؤلاء قد يعملون عنه أو يعصبون لتبنيهم من الشعور الذي هم مستغرقون فيه .

وسول سينسر : أن المؤثرات لها في الإنسان ثلاثة منافذ : منفذ الحس ، ومنفذ الفكر ، ومنفذ الحركة العضلية ، وإنها كلها قابلة للتحويل من منفذ إلى منفذ سواء بدأت بالتفكير أو بدأت بالحس أو بدأت بحركة من العضلات .

والرجل الذي يهرب من الخطر الداهم يجرى وتشتغل عضلاته بهذه حركة . ولكن هذه الحركة العضلية لا تستغرقه ولا تمنعه أن يفكر في الخطر والحيلة التي يحتالها أو العمل الذي يعمل له للنجاة منه .

فإذا كان الخوف أهون من الخوف على الحياة فربما انصرف بالحركة وأصبحت الحركة ضرباً من الرديصة التي يتشاعل بها الإنسان عن حالته النفسية

والطفل يصفق إذا فرح لأن شعوره ينتقل من الأعصاب إلى العضلات . أما فرك الرجل الكبير كفيه في مثل هذه الحالة لأنه يعود هذا الشعور أو يعود أن يتحول عنده إلى الفكر كما يتحول إلى العضلات .

وعما يدل في رأي سينسر على أن الضحك من حركات رد الفعل أو من الحركات الانعكاسية أنها حركات لعب قصد أو حركات غير مقصودة بزيادة صاحبها ، كأنها غمضة العين للوقاية أو رعشة البرد التي لا يريدونها المقرور . . .

ويتوسط سينسر في وصف تأثير هذه الانفعالات غير الإرادية فيرى أن تأثير الشعور قد يعطل تفكير الخطيب على الرغم من أنه واقف أمام الجماهير يحس وجودها ويخشى أن يتلعثم أمامها أو لا يتال موافقتها وإعجابها . ولو أنه وقف ليلقى خطاباً أمام الكراسي الخالية لانطلق تفكيره بغير عائق من الحس والشعور . وهما ثلاثتا عوامل مشتركة في التأثير على الخطيب . عامل الحس إذ يرى الجماهير ، وعامل الشعور إذ يخشى التقصير والخيبة ، وعامل الفكر الذي يشغل الحس والشعور جانباً منه فلا ينطلق مع اشتراكها كما ينطلق على أفراد

السريان بين منافع الحس والتفكير والحركة الطبيعية في المؤثرات النفسية ، ونبدأ بحركتي من حركتها الطبيعية من الفكرة إلى الحس وحركة ، أو من الحس إلى الحركة والفكر ، أو من الحركة إلى الأحاسيس والأفكار

غير أن الحس أو الفكر لا ينتقل إلى عنصر التي من قبيله ، فإذا كان الألم شديد جداً إلى العضلات عند المفاجأة . لأنه بعد حركته يصده عن مجراه

ويستطيع من شاء أن يحسن ذلك من تجاربه ومشاهداته

إذا جلس البس في ماء وحدثت عنده مضحكة الغرياء عن الماء وقد مضحت مضحكة لميت ، ولكن بكاء لمضحكين لا مضحكين ولا تشعبه للمضحكة المضحكة حتى تسر من وربما أثارهم وأغضبهم أن يروا أمامهم هذه والفجعة .

وملاحظة سينسر هذه مهمة جداً في فهمها تعريف فلاتون وأرسطو وغيرهم من السخف أو التشويه الذي لم يبلغ مبلغه

فالألم مانع للضحك لأنه يشغل الشعور الشعور بشيء آخر لم يشعر الإنسان بأحد الأمر هنا خاصاً بالمضحكات دون الغامز

أن المفاجأة التي تتعوق الإحساس عن حدوثها للضحك ولا حاجة معها إلى الشعور وليس بالاستثناء بالمضحكات

أما إذا كان الإحساس من القوة بحيث طريقه ولا يتحول إلى العضلات ، ولا يحسن تجمع لمضاحات

وإذا قال قائل عن جدول الماء أنه يجرى شتاً عن طبيعة الماء دون غيره . فهذا وجود العائق في طريقه سواء في الماء حر وحركة القذيفة من أقوى المدافع والبراميات

وعيايب الحس والفكرة لشعور كله فهو لا ينتقل بجاء الشعور بغير عائق

نحيله على وفاق المؤلف

هم مفاجأة مضحكة فقد صرون وإن كانوا من أهل موزم يبعث في مجرى إلى حركة العضلات ، ثم وهم مغلوبون بالأسى

سبح التعريفات الأخرى يقولون أنه نتيجة الشعور

للمضحكات ومضى اشتغل باللفة ولا بالسرور ، وليس المسرات

وتحوله إلى العضلات كافية ، لأن الألم استثناء لكن

وه المفاجأة فإنه يجتريها في الضحك من ثم على الرغم من

ام يعقه عائق ، فهو لا يقول لك لكل متحرك أنه لا يتحرك مع

وحركة البحار وحركة السهم

وكذلك يكون من قبيل تحصيل الخصال أن يقال أن المضحك يحدث ما لم يمنعه الألم . فإن الألم يحجب الشعور بالمضحكات وغير المضحكات بحجب المتعة بالنكتة كما يحجب المتعة بالحمال والحلال واللذة وبذائع الصور على إحمال .

ويؤكد هذا ما لاحظناه أنما على تعريف أرسطو الذي يشترط في الدعامة المضحكة ألا تبلغ حد الإيلام . فإن الإنسان لا يتألم ولا يعجز للمضحك في وقت واحد ، وإذا جمعا شئ أحدهما مرفه الإحساس والدهن والآخر تميل الإحساس والدهن فلا يلزم أن يكون هذا أكثر فطنة للمضحك من ذاك لأنه يضيء الألم . بل يطفىء شعوره بالألم وشعوره بالمضحك في وقت واحد ، ويعمل عن التشويه كله بجميع درجاته فلا يلحقه ولا يحس في درجة من الدرجات .

ومن ثم سنهي بعد ما تقدم إلى الثقة من شرط واحد في المضحكات وهو تسرح المفحاة التي تتحول بالشعور عن مجراه . فإذا كان الشعور حاريا في مجراه . كشعور الحزن العميق . فالمفحاة لا تدفعه إلى الضحك ، وإذا كان في المجلس نفسه أحد لا يبلغ منه الحزن ذلك المبلغ من العمق والاستعراق فإنه يصحك من مفحاة لأنها تستطيع أن تتحول بالمظهر ، أو المسمع ، من حسن الأعصاب إلى حركة العضلات .

رأى برجسون

والرأى الثاني بين الآراء النموذجية هو رأى هنري برجسون الفيلسوف الفرنسي صاحب مذهب دفعة الحياة

ورأيه في الضحك أنه في وقت واحد تطور منطقي وحاسة اجتماعية

فحين يصحك إذا رأينا إنسانا يتصرف تصرف الآلة ويقيس الأمور قياسا الكمال لا محل فيه للتفسير المنطقي . ولكنك تصحك في اجتماع عامة ولا تصحك منفردين لأن الضحك نسبة اجتماعية أو عقوبة اجتماعية لم يعص عن العرف المتبع في المجلس أو في المحضر أو في الهيئة الاجتماعية .

وتصحك عند برجسون إنسانى بمعانى الكلمة جميعا ، فلا يشاهد في غير الإنسان ولا يستشيرنا المضحك في غير عمل إنسانى أو عمل تربطه بالإنسان .

فحين لا نضحك من منظر طبيعي أو من جمود كثر . كان إلا إذا ربطناه بصورة إنسانية . وجعلناه شبيها بإنسان تعرفه أو منسوبه من عمل من أعمال الناس . وقد نضحك من قبة نراها فلا يكون المضحك من القبة بل من الإنسان الذي يليها وتتصور هيئته فيها .

ومن شروط الأمر المضحك عند الفيلسوف أن يكون شيئا إنسانيا بغير معنى أو يكون معنى فيه مطردا على طريقة تامة من أعمال لأدوات المخرقة من التفكير .

ومن شروط الأمر المضحك عنده أن يحصل في جملة يرتبط بالتصرف في الجماعة . فقلت يصحك الإنسان على شرط أن ينحصر العلاقة الاجتماعية في ذهنه ، وقدا سطر إلى أحد يصحك من فرد إلا حرم الشك في عقله ما لم يكن له عذر تعلمه ، فلا يزال ضحك على انفراد محتاجا إلى اعتذار وتوضيح .

لهذا يقرر برجسون أن الضحك مرتبط بالتصرف المنطقي وبالخاصة الاجتماعية في وقت واحد . فهو وسيلة من وسائل العمل أثناء على التصرف فيه تصرف ترشدين الذين يفهمون معنى ما هم من .

ويفسر الفيلسوف أنواعا كثيرة من الضحك على ضوء هذه الشروط . فيقول مثلا أن مروءة الحركة نهم الأطفال كثيرا فهم يصحكون من كل حركة تصطدم بعروى ويفقد منها لمرة قدرته على المروءة ، ويقول . بل حيل في الحركة يصحكا إذ قاربا بين خلل والوقع ، وبين اللماقة المر سدعها نهم الخلق والتكوير والتصرف معهود . وكثيرا ما يصحك شئ من ذهن لأن الإنسان الداهل يسي عقله وحاسه الاجتماعية أو يعمل غير سر ما يقتضيه الحالة التي هو فيها .

ويؤيد الفيلسوف إلى مناظر الخاكة فيقول أن الخاكة ، ضحكنا لأنها عمل يشبه عمل الآلات وتصحك لأنها تلمت النظر إلى مفلة أو التناقض في الإنسان عكسي لأنه شئ الآلات . ود رأيا وجه . شابهان تشابهها تاما ضحك لاسا تصور نهما مصوعان في قالب . . . كما تصنع الوجوه التمثيلية

وتصحك أن يتحكم الجسد في العقل والإرادة . غير مناسب للموقف الحاضر ، فنضحك من الخطيب الذي تعلله الحماسة والعطاس في وقت

الأخطاء التي لا تبلغ حد الإجرام لأن المجتمع يعالج يعالج هذه بالجزاء القانوني ولا انتقام . وتناول الأخطاء التي ينبو عنها الفوق كل للشومع سوء النية لأن المجتمع يداوى هذه بالشعور والاشمئزاز وإنما يكتفى بتصحيح من الأخطاء التي سبب فيها الإنسان عن التفاليد الاجتماعية على غير قصد وبغير نية . بهذه الأخطاء يكتفى في التحذير منها أن يتعرض صاحبها لتصحيح وأن يكون حد التصحيح عفوية على قدر الإساءة العارضة ، فيحسب في هذه حده كونه قدوة حميدة حيث لا حاجة بتصحيح القانون الذي يحمي المجتمع من أضراره وأخطاره .

من يكاد يكون التصحيح عقابا اجتماعيا خفيفا لمن يدينون بالأحكام الخرفية ويصنعون القواعد في دقة وصرامة توحي إلى الذهن أن الذي يطبقها آلة لا تفكر ولا حس ب تصوره ولا تفرق بين حزاء وحراء وتقدير وتقدير .

فعلى هذه الحالة يكون التصحيح تصحيحا للأحكام المبالغ في دقتها خرفية ، لأنها صفة آلية لا تنبثق بالتفكير المنطقي والتقدير المنطقي .

وزيادة الأمثلة جميعا في رأي مرحسون بحرص أسباب التصحيح في حماية النفس الإنسانية وحماية النفسية الاجتماعية على الخصوص . فكما يجب الإنسان من مرتبة التصرف المنطقى الذي يناسب علاقاته الاجتماعية كذا ذلك مثبورا للتصحيح منه تنبيهه إلى تفصيله ، على شريطة الوقوف بهذه الأخطاء عند حد لا يبلغ الإجرام ولا يدخله سوء النية بل يحلو من كثر قصد يقصده الكائن العاقل المتصرف . هيرتد إلى الحركة الآلة التي تتحرك من المقصد في جميع الحركات .

رأى فرويد

بقى من الآراء النموذجية رأى سيجموند فرويد Freud الطبيب النفساني صاحب المذهب المشهور الذي شاع وشاعت مصطلحاته على الألسنة حتى أصبح حدث الوعي الذاتي والعقد النفسية ومركب النفس وم إلهم من أحاديث أحصاه والعامه . وكاد هذا المذهب أن يسائر تفكير حقايا نفس سرية في مسائل الأخلاق والعدايات والنوع الفردية والاجتماعية .

وقد ألفه الطبيب النفسي رسالة مسببة للكلام على النكتة ومدلولاتها الاجتماعية والفنية ومواطن الشبه بينها وبين الأحلام والرؤى في الوظيفة التي تؤديها للفرد وللجماعة .

وزيدة رأى فرويد أن النكتة ضرب من القصد الشعوري والعملى يلجأ إليه الإنسان في المجتمع ليغنى نفسه من أهواء الواجبات الثقيلة ويتحلى من المرح الذي يوقعه فيه الجلد ولوازم العمل . وأن النكتة تشبه الحلم في أساليبه وهي التورية والتأويل والاختزال والمسخ والتلميق . أى جمع الصورة الواحدة من أجزائه صور متفرقة لا تجتمع في الواقع .

والناس يقولون عن الرجل أنه يمزح أو يقولون عنه أنه يحلم على السواء حين يريدون إهفائه من المؤاخدة ولا يريدون لجد معه في المحاسبة والتحقيق . وكأنما يحتال المرء بالفكاهة على بلوغ أمر لا يبلغه بالحجة والدليل ، وكذلك يحتال في أحلامه على تحقيق الأمنى التي تفوته في اليقظة وتشغل باله على غير جدوى . فهو يستعين بالنكتة أو بالحلم على صموده واحدة وهي تيسير الواقع وإعفاء من الكلفة والمشقة .

وقد أورد في رسالته أمثلة كثيرة سنشير إلى بعضها ونكتفى هنا بتأدية واحدة من التواثر الفكاهية التي تساوى الأحلام في رفع الكلفة والسماح لقائلها أو سامعها بما هو محظور عليه . إذ حد في القول وعبر عن عرصه بالكلام الصريح .

رجلان من أصحاب الملايين صنعوا صورة لهما عند رسام مشهور وعرضت الصورتان في معرض عام وبهيهما فجوة تتسع لصورة ثالثة . فقال أحد الناظرين وهو يتأمل الصورتين ويظهر إلى الفجوة التي بينهما : هاهنا متسع لصورة السيد المسيح .

وسمع الواقعون كلمته وعلموا أنه يقول عن صاحبي الملايين أنهما لسان ، لأن القصة للمسيحية تقول إن السيد المسيح وضع على الصليب بين لصين ، وعلموا أيضا أنه يعنى أنهما يستحقان الصليب كما استحقه أولئك اللسان ، ولكنهم ضحكوا . وسمع صاحبا الصورة ما قيل فلم يجد سبيلا إلى مؤاخذته أو رفع أمره إلى القضاء ، ولعلمهما لو فعلا لأنهمهما الناس بالحلامة وجرا على نفسيهما من السخرية ما كانا في عنى عنه .

ويريد فرويد منا في هذه البادرة وأشياها أن تتحلى قائل النكتة وهو يحلم ويعبر نفسه عن الحرمان من الشراء . فإنه سيحقق في منامه قصة يتمثل بها صاحبي الملايين مشهورين بين الناس بالسرقة أو مسوقين إلى ساحة المعصاة أو معذنين وراء جدران السجون ، فيعمل الحلم عمل النكتة في ترضية الرجل بأسلوبين مختلفين يصلحان من باعث واحد لعاية واحدة .

ويسمى فرويد أخطا من النكتة تشترك بين الجنس والمفارقة ورد الخيلة بحيلة من قبيلها والتفاهم على الكذب والأجوبة المسكتة وكشف السر على غير قصد وغيرها من المضحكات مما ينطبق عليه تعليقه بسهولة أو ينطبق في صعوبة ونصف .

وهذه أخطا منها لنقلها بغير ترتيب ، ونبدأ منها بنادرة تشبه النادر التي نرى عن قره قوش وتصلح للدلالة على وحدة المنطق الفكاهي بين الناس على تباعد الأقطار والأجناس .

يروى في بعض قرى الجبل أن حدادا اقترف جريمة يعاقب عليها بالموت بحار قاضي القرية في أمره لأنه الحداد الوحيد في القرية ولا تستمع عنه بغيره إذا نفذ فيه الحكم ، ثم اهتدى بعد التفكير إلى حل المشكلة بإعدام الطرزي بدلا منه لأن القرية فيها طرزيان !

ومن الأقوال المضحكة التي استشهد بها فرويد قول الشاعر هابس في امرأة يعيبها في قلب الثناء فيقول أنها تشبه عثال الزهرة « فينوس » .. لأنها مثلها عتيقة جدا . ومثلها بغير أسنان . ومثلها في البقع البيضاء على بشرتها الصمر .

وشبيه بهذا الثناء المعكوس قول القائل عن رجل يهجو أنه يشبه جميع العظام . فهو كالاسكندر ينحرف رأسه إلى جانبه . وكبوليوس قيصر يكمن شيء في شعره على الدوام ، وهو يفرط في شرب القهوة إفراطا ليبتنز . ويسى الأكل والشراب إذا جلس على المائدة كأنه إسحاق نيوتن . ويحتاج كما يحتاج إسحاق نيوتن إلى من يوقظه .. وهو يلبس الشعر المستعار كالدكتور جونسون . ويترك سراويله مفتوحة كمؤلف دون كيشوت

ومن نوادر فرويد عن اليهود - وهو يهودي - أن يهوديا رأى على حية زميله بقايا طعام فقال له : « إنتى أستطيع أن أذكر لك الصنف الذى أكلته بالأمس » . قال زميله : « حسن ، قل ودعنا نسمع » فقال له صاحبه المتعالم : « أنك أكلت فولا » .. فسخر منه أكل الفول وقال : « كلا . إنك غلطان يا هذا . فإنتى أكلته أول أمس » !

وبلاقي يهوديان في القطار فسأل أحدهما الآخر : « إلى أين تذهب ؟ » وأجبه الآخر : « إلى كراكاو » فعضب السائل وعاد يقول : لماذا تكذب على ؟ .. إنك تعلم أنك إذا قلت لى أنك ذاهب إلى كراكاو فهمت أنا أنك

ذهب إلى سرح . ولكنى أعلم فى هذه المرة أنك ذاهب حه .
سماد هه كك «

ويذكر فرويد من هن النكتة أسير . يعتمد على اللعب من هذبه صحرية سهلة . ومن تيسر هذه نكات قول :
« لانا له مستقل عظيم وراءه ! » . وقوله عن وزير رواء :
« عاد إلى حقته : أنه عاد إلى مكة أمام الخراف » !

ويذكر فرويد يعتمد على اللعب بصفة واحدة تختلف من مناة كنت على اتصال بجميع رجال الجيش : أنها :
لأن الجيش لا يصدق ببراءتها .

ويذكر نكتة في الجواب ، ومن قبيلها أن رجلا قصد :
« ونهمه له في عسرة شديدة وأنه يحاج إلى قرص يسر »
محققه . وبعد إعطائه القرص ساعة رآه المحسن ينق إياه :
« مطاعم الصفة نعليا وأمامه صفحة من السمك الفاخر فقال :
« تعق المال الذى تستعيره للضرورات لتأكل به الصحاف » !
« اغتال وكأنه نهش من سؤاله : « عجبا لك يا سيدى !
« إن كنت لا أكلها مفلسا ، ولا أكلها وفى يدى ثمنها ؟ »

وعلى هذا النمط قصة مدرس في إحدى قرى صوام
يدمن السكر حتى اعتزلته جميع الأسر ونفر منه تلاميذه
قائلا : « إنك تستطيع أن تجمع عندك تلاميذ القرية
الشراب ، فمما لا تحاول وتحرب ؟ » فأجابه المدرس السكر
هذا : « إنما أعطى الدروس لأجد الشراب فهل ترانى أدرس
الدروس ؟ »

وقريب من هذا اللعب بالمقابلة قول القائل في ثقافة :
« نقضى نصفها الأول متطلعين إلى الثانى ، ونقضى نصف
على الأول ! »

وسمع قولثير قصيدة روسو الشاعر الفرنسي الذى كتبه
إلى الأجيال المقبلة . فعقب عليها قائلا : « هذا خطأ
إليه »

وللأجوبة المسكتة نصيب وافر من أساليب الضحك عند فرويد . وهذه أمثلة منها :

كان القيصر أغسطس يسبح في أرجاء ملكه فلمح شخصا يشبهه كل الشبه . فسأله :

أكانت أمك تعمل في بيتنا ؟

فأجاب الشبه الجريء :

كلا . . بل كان أبى . . !

وكان بعض الرواعظ الأمريكيين ينادى بحقوق السود في بلد ليس فيه كثير من السود فقال له رئيسه

لم لا تذهب إلى كنتكى حيث يقيم أصحابك ؟

فسأله الرواعظ المستول :

ألمت يا مولاي تعمل لإنقاذ الأرواح من النار . فلماذا لا تذهب إلى جهنم ؟

ويتحلى لأمثلة كلها نادر متفرقة تعتمد على لحاس اللفظى الذى لا يعمل من لغة إلى لغة ولا حجة إلى بقية كثرة هذه العكاهات الحسية في اللغات جميعا ولا سيما العربية . ثم يختم الرسالة بتلخيص لتقسيم المضحكات إلى ثلاثة أقسام : النكتة Comic Wit والهزل والدعابة hu-mour

وكلها بما عسر عده بالقصد في القوى النفسية . ولكن النكتة قصد في العاطفة التى يكلفنا كتبها الكثير من مجهود النفس ، والهزل قصد في الفكر والمنطق ، وأما الدعابة فهي قصد في الإحساس ، وأما تتطلب هذه الأمانى جميعا بعد سن الطعونة التى لا تعرف المفارقات المضحكة ولا تقدر على تفكير النكتة ولا تحتاج إلى الدعابة لتشعر بالسعادة

والى هنا يبدو لنا أن الأمثلة التى استشهد بها رائد المدرسة النفسية الحديثة لا ينطبق عليها تفسيره في جميع الأحوال . وأن القصد في الشعور أو التفكير قد يتحقق بالنكتة أحيانا ولكنه لا يتشبهها ولا هي متوفرة عليه

ولسرح إلى نادرته عن اليهودى الذى قابل زميله في المطار وسأله عن وجهته فصرح له بذهابه إلى كراكاو وعتب عليه زميله لهذا الكذب لأنه كان

مبذنب فعلا إلى كراكاو ولم تجر العادة بذكر الوجهة الحقيقية في إجابة أمثال هذا السؤال .

فلا قصد في هذه النادرة ولا ادخار ، وليس فيها موضع لزيادة في المقال أو الاتهام . ولكن تبضحك السامع لأنها تفاجئه بعبارة اليوم لهذه المناسبة . فإن السامع يسمع منه على الكذب فلا يحظر سأل أن الكذب في عرف المتحذنين هو جهل بالصدق الصريح ثم بعداً بسب اليوم فيكون المصاحف عماد الفكاهة هنا كما كانت عماد الفكاهة في جميع النوادر التى استشهد بها فرويد من المعالطات أو التحريفات أو الأجوبة المسكتة . وليس في الجواب المسك قصد في الشعور أو القول . ولكنه مثل واضح للمفاجأة على الخصوص حين يكون السائل على ثقة من إحراج المستول فلا يلبث أن يأتيه الجواب السريع فيرتد الخرج إليه .

ويجوز لنا بعد هذه التعليقات الموجزة أن نفهم أن رأى برجسون ورأى فرويد لا يناقضان تفسير الضحك من الوجهة الجسدية كما أجمله داروين في كتاب التعبير . وفصله سيسر في مقاله عن الضحك من الوجهة الفريولوجية وأبعد لا يخفى أن ذلك التفسير في النهاية سواء كان سبب الضحك فكرة أو مشاهدة حسنة . لأن شبحه هي أن يتأثر الحسد به على النحو الذى ذهب إليه سيسر وداروين من قبل .

مفاجأة تحبس الفكر أو الشعور عن مجراه فيتحول منه إلى العضلات ويبدأ الأثر في أسهل هذه العضلات حركة ثم يسرى إلى غيرها من عضلات الجسم كله إذا اشتد الياعث على الضحك .

ولا نفص بين هذا وبين قول برجسون أن الضحك من الإنسان إذ تصرف في حركاته وأفعاله تصرف الآلة لصماء . فإن هذا التصرف يفاجئنا شيء به ستظهر من إبداع عبقري عمده على حكم المنطق العفوى الذى طبع عليه الإنسان المسمى بالحيوان الناطق أو الحيوان المنطقى بعبارة أخرى . فنحن نتصور عملاً منطقياً يرى أمامنا عملاً آلياً على غير انتظار أو على خلاف المتظر ، وهذه هي المفاجأة التى ترجع بنا إلى تفسير داروين وسبنسر ، وقد صحت الإنسان من التناقض المماثلة قبل شيوع الآلات وحلق له جهاز الضحك قبل احتقاره التشبه بالآلة .

وقول برجسون أن الضحك تنبيه اجتماعي لمن يظهرون عن آداب البيشة لا

ينقص هذا السبب . لأنه فائدة من فوائد الضحك لا تفسر أسبابه ولكنها تدل على غاية من غاياته ، والفرق ظاهر بين الأسباب والغايات .

ويرجع بنا رأى فرويد إلى المفاجأة كما يرجع بنا رأى برجسون إليها . فإن استخدام الضحك أحيانا في « الاقتصاد الشعوري » هو أيضا من قبيل الفوائد التي يستفيد منها وليست الفوائد كما تقدم معطلة للأسباب .

وليس في النواذر التي تمثل بها فرويد مادة واحدة تدخل من المفاجأة وتغنيها عن تفسير سبب أو تفسير داروين ، فالجواب المسكت مفاجأة ، والحيلة التي ترتد على صاحبها مفاجأة ، والتخلص السريع بالمعاطلة التي تخالف المنطق المكشوف مفاجأة . وتكذيب الجواب الصادق لأن الصادق غير مكشوف من صاحبه مفاجأة ، وسائر النواذر التي نقلناها أو لم ننقلها ترجع بنا إلى علة المفاجأة من أقرب طريق .

وقد فرق الباحثون في الضحك بين كثير من المضحكات لاختلاف أسمائها كما تختلف كلمات السخرية أو الاستهزاء أو الدعاية أو الفكاهة .

فإذا استرسل الناظر في تتبع هذه الفروق وجد في النهاية أنها تؤول إلى فروق بين أنواع المضحكين وليست فروقا بين أنواع الضحك في أصوله ، فالمضحك كله مفاجأة تتحول بالفكرة أو الشعور عن مجراه .

ولكن السخرية التي تؤلم الناس أو تكشف عيوبهم ومثالبهم هي ضحك الشرير الخبيث

والاستهزاء الذي يتعملى صاحبه على الناس هو ضحك المتكبر الذي غلظت نفسه فلا يبال لهم الشعور . أو هو ضحك العايب الذي يستخف بكل شيء ويجد الناس وهو ناظر إلى جدهم بغير اكتراث .

والدعاية التي يشترك فيها المضحك والمضحوك منه هي ضحك القلب الضيق الذي يسر نفسه ويسر غيره ، يكشفه من همواتهم أو يعرضه من نقائصهم ، فلا يحسون أنه يرفدهم بتلك النقائص أو يأخذ تلك الهموات مأخذ الشماتة والخيلاء

والفكاهة التي تمثل لنا المضحكات هي ضحك الفنان أو الناقد الذي يصور لنا دواعي الضحك ويسد في تصويرها وتثليلها ، فهو مصحك وليس بأضحك ، أو هو واضح الضحك وليس بموضوع للمضحكين .

وهذه كتب فوارق بين المضحكين وليست فوارق بين أنواع الضحك في الصميم

ومن الشائع جدا أن يشتد ضحك شعور العنطة منعوقا على الآخرين ولكن لا يسر أن يصحك من « من » إذا موحنا بالهزلة التي لا تتوقعها في موقف نص فيه أما يحكمه من « لعبونا فإذا هو قد أدت من تلك الشدة وأوقع لب

ومن هذه الهزيمة مدحضة ضحك الساسة والأمراء حين بلغهم إهلات نابليون من جريره ألبا وعزله . فربما وهم يحسون أنهم وضعوه في القفص وجلسوا بعده يقررون مصير أمة لأوروبية من بعده .

ولو أنهم موحنوا بسور حاصرهم في مؤقترهم ويهددهم لساعته في أرواحهم أو عروشهم . صححو كما ضحكوا وهم آمنين في تلك الساعة .

إلا أن هذا لا يعنى أن المدحمة مصحكة ، وأن السامع البعيد يضحك منها وإن لم يصحك منها ساء . والأمراء المحاصرون لا اشتعال شعورهم بالخطر الغريب ولهذا يبقى عصر مفاجأة قائما في تفسير أسباب الضحك ويحتجب الأمر بحجب الصدركين في الشعور بالخطر ساعة المفاجأة ، ومن كان قريب شعله أخوف غير نصحك ومن كان بعيدا لم يشله عنه خوف عاجل يغطي على شعوره في تلك الساعة

وينساوي في هذا الشعور بالضحك والشعور بالجمال والشعور بالذلة ، ولو كان المعروف على مؤقتر الساسة فتنة من فتنة الرهرة رية الجمال وحاصرهم العدو ، مهدد لحياتهم لشعله بالخطر من الشعور بذلك الجمال الفتان ، ولو كانت مائدة طعام جمعت من لد وطاب بين أيديهم ثم حوصروا تلك الحصار لشعلهم بالخطر كذلك عن « الطعام والقوت » .

فلا يلزم إذن أن نقول أن الشيء المضحك هو الشيء المشوه الذي لم يبلغ درجة الإيلام ، لأن بلوغ درجة الإيلام يعطى كل شعور ولا يعطل الشعور بالمضحكات دون سواها

وصحيح . بعد هذا ، نحن نتصبرت جميعا فنقول أن الضحك ينجم عن مفاجأة تتحول بالمعكروا شعور عن مجراه ، وأن الاختلاف بين السخرية والاستهزاء والدعاية والضحك لا يلحق إلى إحسب عن حثلاف في أنواع الضحك لأنه هو في لاه اختلاف بين المضحكين

الضحك في الكتب الدينية

في القرآن الكريم

لا يتقابل شعوران من طرفي التعظيم والاستخفاف كما يتقارن الشعور بالقدس والشعور بالضحك في نفس بشرية

ولا يوجد لنا مرجع نعتمد عليه في هذه المقابلة الواقعية أولى - نرجوع إليه من الكتب المقدسة ، ولا سيما الكتب التي تسوق العبرة من القصص والأمثال وتروى الأخبار عن الضحك والصاحكين من محتف الطباع ولا مرحلة وفي محتف المسامات

وهذه الأخبار متكررة في القرآن الكريم . وكلها شاهد محكم للعالم النفساني يركز إليه في تفسيره لأطوار النفس البشرية ، حيث تبرر حقيقة الضحك مع سياق الكلام عنه في كلام مقدس ، ليروز الفارق بين الشعورين : شعور القداسة في موضعها وشعور الضحك بشئ معابه

جاءت الإشارة إلى الضحك في القرآن الكريم مرة في قصة إبراهيم ومرة في قصة سليمان عليهما السلام .

ففي قصة إبراهيم يقول إبراهيم حين زاره الملائكة فلم يعرفهم وحافهم ثم بشروه بولادة إسحاق من زوجته سارة

« ... فلما رأى أيديهم لاتصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لاتخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط وامرأته قائمة فضحكك فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب قالت يا ويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا إن هذا لشيء عجيب »

مهب خوف فاطمئنان فبشرى مفاجئة على غير انتظار ، فتعجب لا تملك سارة أن تجهر به فتقول : إن هذا لشيء عجيب .

كل عوامل الضحك النفسية التي ظهرت للباحثين المعاصرين في تفسيراتهم . تعرضها هذه الآية الكريمة على نسقها المتتابع فتأتي بالضحك حيث يأتي الضحك مطردا في مواضعه المختلفة من تحول الشعور طمأنينة بعد خوف ، ومعرفة بعد نكران ، وبشارة بما ليس في الحساب من الولادة بعد سن

ميتس وخيبة الامل في الذرية زمنا طويلا تمتلح فيه النفس بأشتات من نواعي الحزن والعزاء والغيرة والتسليم

ولانفسى هنا كلمة « سرت أو كلمة استبشرت أو فرحت » في مكان كلمة صحت . من الضحك هو الأثر الملائم لهذه الحالة التي نشأكت فأصبحت في قرارة النفس حالات متناقضات .

وجاء في القرآن الكريم عن قصة سليمان عليه السلام : « حتى إذا أتوا على وادي نمل قالت غملة : يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون فتيسم ضاحكا من قولها وقال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحا ترضاه »

هنا هنا عوامل الضحك على سجيتهما ماثلة في نقائضها الدقيقة ومصاحباتها التي تقشرون به على حسب هذه المناسبة دون غيرها ، وهي مسسة محالفة في بعض أجزائها لمناسبة الضحك في قصة إبراهيم .

ها العارق السامع بين ضالة النمل وبين ضخامة الملك الذي أوتيته سليمان .

وها رضى سليمان بما تفيضه نعمة الملك العريض في نفسه من السعة ولا ينه عنها ما تقول

وها رضى سليمان بما تفيضه نعمة الملك العريض في نفسه من السعة والحصنة وتلهم من الشكر والخشوع ، وكل ذلك أت من حيث لا ينتظر : من نفة ضئيلة بحسب أن تحطم هي وواديها كلها ولا يشعر بهم سليمان العظيم . .

ورب الضحك في آيات متفرقة بمعنى السحرة والاستهزاء ، فجاء في سورة النمل : « إن الذين أجروا كانوا من الذين آمنوا يضحكون وإذا مروا بهم يتعمدون وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لصالون ومن أرسلوا عليهم حافطين واليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون على ما رأيت يبطرون »

الضحك هنا مقترن بالتغامز الخفى ، كما يحسب المستهزئون أنهم سيعملون المؤمنين الذين يرون بهم فيستخرون منهم بالتغامز بينهم ، يضحكون إذا التفت إليهم المؤمنون على حين ضحاة فلا يكون إخفاء العت

والسخرية ، كما يحدث دائما بين المتغامزين ، ما انكشفوا وامتنع عليهم الكتمان والتماذى في الاستهزاء من وراء الأسطر

والضحك الأخير يأتي حين لم يكن في احسان ، لأن الكفار كانوا يضحكون فإذا بهم قد انقلب عليهم الأمر فهم أضحوكة للضاحكين ، وهؤلاء وادعون على الأرائك ينظرون .

وجاء في سورة الرخرف : « ولقد أرسلنا مرسى نياتنا إلى فرعون وملائه فقال إني رسول رب العالمين فلما جاءهم بآياتنا يدعهم منها يضحكون »

والضحك المفاجأة هنا واضح من طلب الآيات نه إخلاف طر موسى عليه السلام لأهم عبثوا به وهو ينتظر منهم بعد محبتهم بالآيات أن يؤمنوا فإذا هم يعاجونه بما لم ينتظر من أصرارهم على الكفران

ولاند في كل ضحك من الشعور بالمفاجأة في ضحك أو فيمن يتعرض للضحك فهو شعور ملازم للمضحكات من طريقه

وفي سورة النجم عن نوح عليه السلام : « ونوح نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى والمؤتفة أهوى فغشيها ما عثر بآي الآء ريك تمارى هذا نذير من النذر الأولى أذفت الأزفة ليس لها من رن الله كاشفة أقمم هذا الحديث تعجب وتضحكون ولا تكون وأنتم سامعون فاسجدوا لله واعبدوا » .

ففي هذه الآيات يحسب الرسول أنه يأتيهم بـ يكبهم فلا يحسون داعية للبكاء ويستغربون فينتقل بهم الاستغراب من الحديث الرسول عن نذير الأزفة المطبقة إلى الأمان الذي يتصورونه ولا يحسون عبره . وبين هذين التقيضين المتباعدين يتعجب القوم ويضحكون : موقف لا وسط فيه بين البكاء والضحك . فأما أن يحس السامع نذير الأزفة فيسكى أو يستغريها ويستبعدا فيضحك تعجبا من كلام القائل واطمئنانه إلى ضمان الذي يقال لهم أنهم مهلدون فيه .

والضحك من البلاء الذي لا يحس السامع ويحس بقبضه كالضحك من البلاء الذي يحس ويحس أنه ناج منه ، وقد تكرر ذكر الضحك بهذا المعنى فجاء في سورة التوبة عن المخلفين الذين فرحوا بغيرهم عن القتال : « فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله وقالوا لا تتفروا في الحر قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا جراء بما كانوا يكسبون »

[illegible][illegible]

...سهرى. حسب الحكمة ولا يجدها

منح انكسر اسمه مستهزى. حامل بفيضان الكبرياء .

...سهرى. فيندكى الأحمق

...سهرى. يصير الأحمق حكيما

...سهرى. يتنول المدينة ، أما الحكماء فيصرفون الغضب

...سهرى. يقبل تأديب أبيه والمستهزى. لا يسمع انتهازا .

...سهرى. أكثر الكتب فى العهد القديم إشارة إلى الهزء والاستهزاء

...سهرى. نبيعة السفر كله ، لأن الأمثال سفر الحكمة والتجربة وهما

...سهرى. الذى يستغف صاحب به جميع الأمور ولا يزال كذلك حتى

...سهرى. أيام إلى الاعتبار بالحوادث وبعد النظر فى عواقب الأمور ، فإذا

...سهرى. قال الشاعر العربى :

ضحك السفهاء منها ويبكى من عواقبها اللبيب

...سهرى. حسب العهد القديم كتاب تكرر فيه الإشارة إلى الاستهزاء كما

...سهرى. الأمثال ، ولكنه جاء فى بعض الكتب على نثره واختلاف

...سهرى. وكانت قصة سارة فى سفر التكوين أن تنم عن ضحكك

...سهرى. والاستعظام ، لأنها لا تستهزى. بالبشارة ولكنها تستغفها

...سهرى. لأول وهلة ، ولهذا يروى الإصحاح الثالث عشر عنها أنها

...سهرى. سها وأنها أنكرت الضحك حين سمعت من ضيوط إبراهيم

...سهرى. من صفة الملام .

...سهرى. ساره امرأتك ؟ فقال هاهى فى الخيمة ، فقال إبنى

...سهرى. من الحياة . أى الربيع . ويكون لساره امرأتك اس . وكانت

...سهرى. من باب الخيمة وهو وراءه ، وكان إبراهيم وساره شيخين

...سهرى. الأم ، وقد انقطع أن يكون لساره عادة كالتساء فضحكت سارة

...سهرى. أبعد فتأنى يكون لى تنعم وسيدى قد شاخ ؟ فقال الرب

...سهرى. ضحكت سارة قاتلة : أفيالحقيقة لك وأنا قد شخت . هل

يستحيل على الرب شيء ؟ فى الميعاد أرجع إليك بعد زمان الحياة ويكون

لسارة ابن ، فأنكرت سارة قاتلة لم أضحك ، لأنها خافت ، فقال لا بل

ضحكت .

المواضع التى ورد فيها الضحك فى كتب العهد القديم إنما كانت نديدا

بخلقة الاستهزاء والسخرية ، أو كانت بمعنى الاستهزاء الذى يرد الاستهزاء

على أصحابه ، ومن هذا القليل ما ينسب إلى الإله أو إلى عباده الصالحين . .

وبهذا المعنى نسب إلى أيوب حيث جاء فى سفره : « لا ترفض تأديب

القدر لأنه هو يجرى ويعصب ، يسحق ويذاه تشفيان ، فى ست شدائد

ينجيئك وفى سبع لايمسك بسوء ، فى الجوع يفديك من الموت وفى الحرب

من حد السيف . من سوط اللسان ، فلا تخاف من الخراب إذا جاء . .

ضحك على الخراب والحل ولا تخشى وحوش الأرض .

وهنا يعود أيوب فيهنأ بالخراب والحل بعد أن كان ضحكة لهما أو ضحكة

للهازلين الذين حسبوه فريسة لهما وحسبوا ألا نجاة له من مصابه بهما

وبغيرهما من ضروب الحنة والبلاء .

لا جرم يقال عن الضحك بمعنى الاستهزاء . كما جاء فى الأمثال : « أنه

فى الضحك يكتئب القلب وعاقبة الفرح حزن » . . أو كما جاء فى الجامعة :

« إن الحزن خير من الضحك لأنه بكأبة الوجه يصلح القلب .

ولم يذكر الاستهزاء بغير فى كتب العهد القديم إلا أن يكون ردا على

المستهزئين وعقابا للسخرية والمجون .

على أن الضحك قد ورد فى العهد القديم بمعنى السرور مقابل للحنين

مصحوبا بالعناء ، كما جاء فى المزمير بعد رد السى « أننا . . . حيث

متلأت أفرها ضحكا وألسنا ترم »

ولا يلزم فى هذا المعنى تفسير الضحك بالأسباب التى أجمعناها جميعا

تقدم . ولكنه - على هذا - لا يحو من الشعور بالتمس بعد القصص ، إذ

ينتقل المرء من الأسر إلى الطلاقة ، فيعبر عن فرجه بالضحك والعناء

فى الإنجيل

أما فى العهد الجديد فقد جاء ذكر الضحك فى إنجيل لوقا على لسان السيد المسيح حيث يقول وقد رفع عينيه إلى تلاميذه

ورفع عينيه إلى تلاميذه وقال طوباكم أيها المساكين لأن لكم ملكوت الله . طوباكم أيها الجوع ، لأن لأنكم تشبعون . طوباكم أيها الباكون الآن لأنكم ستضحكون .

وهنا يأتى الضحك مقابل للبكاء ولا يخلو من دواعى الضحك فى جميع الأحوال وأهمها تبدل الحالة والمقابلة بين السقيضين .

وهذه الشواهد من هذه الكتب الدينية التى يقرأها المؤمنون بها ويقدمون ما بها - خير ما يستشهد به على طبيعة الضحك فى حالات متعددة ، لأن هذه هى التى تبرز فى مواضعها برور واصحاب يقادها من شعور القداسة ، وتنشأ عن مشاعر متباينين فى الأزمنة والأمكنة والطبائع والأخلاق ، فعلم أن الإنسان فى كل زمان ومكان ، وأن الضحك خاصة إنسانية تعم بنى البشر .

الإنسانية والفكاهة

أيا ما كان القول فى تعريف الضحك وتعليله . فمن أصبح الأقوال مع جميع التعريفات والتعليلات أن الضحك - كما نال برجسون - ملكة إنسانية من طرفيها ، فلا يضحك إلا إنسان ، وما من شيء يضحكنا إلا أن يكون إنسانياً فى صورة من صوره ، ولو على سبيل التشبيه .

ولنا أن نقول إن الإنسان حيوان ضاحك كما نقول إن الإنسان حيوان ناطق . .

أفنعنى بذلك أن كل إنسان يضحك بلا استثناء ؟

كلا . إلا كما نعنى أن كل إنسان ينطق ويفكر ويتكلم بلا استثناء .

فهناك خرس لا ينطقون ، وهناك بله لا يفكرون ، وهناك صغار أو همج تتولاهم الغرائز على نحو قريب من سيطرة الغرائز على الأحياء التى لاتساوى البشر فى الخلق أو فى الذكاء .

ولكننا مع ذلك نقول إن الإنسان حيوان ناطق ونريد بذلك أنه ناطق بالقوة على اصطلاح المناطق ، أو بالاستعداد العام فى أبناء نوعه كما نقول فى عرف المصطلحين ، وكذلك يقال إن الإنسان حيوان ضاحك ومنه جماعات بدائية لاتفهم الضحك ولا تدرك موقعه من أعمال الناس ، ولاتميز بين المضحكات وغيرها من الأعمال المخالفة للمألوف ، لأن مخالفة المألوف بين أبنائها ظاهرة نادرة جداً لانطباعهم على العرف التوارث الذى لا يحالفونه إلا وقعوا فى محظور « المحرمات » . مع قصورهم عن مقارنة التى تتصح منها السقائص ومواطن الضحك أو الاستعراب .

ولعل هذا المعجز عن الضحك فى هذا الطور من أطوار الإنسانية معزز لقول القائلين أن الضحك خاصة إنسانية لا يشترك فيها عامة الأحياء فلا يضحك إنسان وهو - بعد - قريب من أطوار الحيوانات فى حكم الغريزة وغلبة العادة على التفكير ، وإذا رجعنا إلى تفسير برجسون فى هذا الصدد فلا محل للمفاجأة هنا من جريان الإنسان على سنة الآلات فى اطراد العمل بغير تفكير ، فإن القبائل البدائية المعرفة فى الهمجية تجرى كلها على هذه السنة ،

ولا يكون فيها مخالفا للمألوف إلا الذي يشد بالتصرف على خلاف الوثيرة المطردة والسهج المرسوم .

أما بعد هذا الطور من الهمجية البدائية فالشعوب جميعا تعرف الضحك وتعرف واضعه وموضوعه بالتجربة العملية وإن لم تعرفه بالتفسير والتقسيم .. ويريد بواضع الضحك من يخلقه بتمثيل المضحكات واختراعها وحكايتها كالمساب والمدماء

ويريد بموضوع الضحك من يكونون أضحوكة الناس بالغلظة أو النقص أو التصرف المتناقض الذي يحول شعور ناظره من وجهة إلى وجهها على حين غرة على الإجمال .

الأمم المضحكة

وقد جرت عادة للعاصرين على وصف بعض الأمم بالفكاهة وتجهير بعضها منها أو وضعها بجهلها ويطه الإحساس بها عند المقابلة بينها وبين الأمم «المكاهة»

والثابت الذي لا شك فيه عن جميع الأمم أنها أخرجت نوبغ الفكاهة في جميع أجيالها ، وأنها في العصر الحاضر تمثل الفكاهيات وتعرضها على حمهرة من أبنائها ، فلا توجد أمة متحصرة لها تاريخ قديم حلت من مواقع لمكاهة ومن آثار هؤلاء السوابغ في الآداب والفنون .

ولكننا نرى أن إحصاء النوابغ هنا لا يفيدنا كما يفيدنا طيل الأمثال التي تداولها الناس ويتوارثونها جيلا بعد جيل ، فإن آثار النوابغ قد تكون مقصورة عليهم وعلى فئة من قرائهم أو من القادرين على الاستمتاع بفكاهتهم ، يكن الأمثال الشائعة ترجمان صادق لتفكير الأمة وشعورها وطريقتها في تعبير عن تجاربها ، وهذه الطريقة تكاد أن تتفق في جميع الأمم أو تتقارب دية التقارب في المصامين والموسم وإن لم تتقارب في اللفظ والتراكيب ..

وهذه أمثال الأمم بين أيدينا تقترب فيها الحكمة أو تأتي فيها الحكمة من طريق الفكاهة على أسلوب قمتزج فيه السخرية بالتهكم والعطف والدهاية ، زحدر فيه الحكمة مأخذ الجند والمزاج في وقت واحد ، لأنها تشير إلى سرب الخطل والحمافة إشارة التعقيب بعد مرور اللغات من الأمثلة والقرائن

والمناسبات ، فهي تتكلم في أمان بعد فوات الضرر وقيل وقوهه على المقصودين بالصبيحة والتذكير .

وعلى سبيل التمثيل بالواقع نستشهد هنا بالامثال في أمتين من أم المشرق وأمتين من أم المغرب ، يقال عن إحداهما أنها أمة ذات فكاهة أو أمة فكاهية ويقال عن الأخرى أنها لا تقطن للفكاهة وأنها اشتهرت بالجهامة وأخذ الأمور كلها بالجند والصرامة التي لا تعرف التورية والتلميح .

ففي المشرق أمة الفرس مشهورة بالسكات القديمة والحديثة من عهد الحضارة الكسروية . وأمة اليابان مشهورة بالكد والنأب والإنصبااب على العمل والتكليف

وفي المغرب تقابل هاتين الأمتين الأمة الفرنسية في صفة الفكاهة والأمة الألمانية في صفة الجهد والجهامة .

وهذه طائفة من أمثلة الأمة المارسية . التي يقال عنها أنها فرنسا الشرق . تتبعها بطائفة من أمثلة الأمة اليابانية بغير اختيار بين صفحات الكتب الجامعة لامثال هاتين الأمتين .

أمثال فارسية

الصدق والكر زميلان

الحب والعطر لا يحتشان

الحقارم الجديد أسبق من الغزال

ليس القلب مائدة تبسط لكل ضيف

الذهب والحجر من معدن واحد في الصندوق

الحائط عريان والإسكاف حاف

الجاهل لا تنفع فيه ، لا هو إنسان ولا هو حمار

يبيع الجند قبل صيد العرال

من دواعي الرثاء أن تفق الذهب في الطلاء

لا لزوم للسك في بركة بلا ماء

كلام يمد ناء والأمطار تلد الثلوج

ما الدائمة " عندما تستطيع لا أعرف وعندما أعرف لا أستطيع "

من متفرقت بعدها اثنا عشر - من أمثال الأمة اليابانية في معارض

من حكمة حية

حب كثير من سيكاد ، والعلاج

من ترى السماء من ثقب إبرة

من يرى - من صوب نصاديق لأسراره

من - من يصحكون من النصف الآخر ، والنصفان حتمى .

من تقدمت حماقة رجعت الحكمة .

من هو صف لا تثير الموج في أعماق الأبار .

من شجرة تحمل لأر مطوحا

سكير يرى بعد الحمر ولا المعيق يندى بسلطانها

يرجع صحت به أذهه العصب

من من حية رداء

من حلال ثبت في حقول الآخرين

من من علم تعلم ماذا يصبح المقروص

من عرسية أشهر أم العرب بالفكاهة فيما تداولته الألسنة من شهرة

من متفرقت من أمثالها :

من منصيلة بعيدا إلا أن يكون الغرور في ركايبها

من من أريج المنتمين

من من سرعان ما تكشف براءته

من من حجة بلا أقدام

من من أحقق من أخوانهم المحدثين

البساطة المفتعلة تكلف مطلقا

لا يقول عن الحظ أنه أعمى إلا الذى لا يراه

تزيدنا السن حمقا كلما زادتنا حكمة

أصدقون الأعراء بقولهم كما يقول

الحب مملكة المرأة

للقلب منطق لا يعرفه المنطق

الذى يحس الحساب لا يثق في حساب

وتلى هذه الأمثال الفرنسية طائفة في مثل عددها من الأمثال الألمانية .

وهذه :

سفينة وتدها من الذهب ترمو في كل ميناء

إن لم تكن مطرقة فكن سنداما

الكيس الفارغ لا يقف مستقيما

بطن فارغ أشجع من رأس ملآن

الصبر أقل عثرات من البصير

من بدأ بالآلف انتهى إلى الباء

التحمة أقتل من الجوع

طريق الشحاذ لا ضلال فيه

أدم وحواء أكلتا التفاحة ، ونحن نطالب بقائمة الحساب

امراتان طيبتان في الدنيا : إحداهما ماتت ، والأخرى مفقودة

المرأة التي لا يصحبها أحد يصحبها الجميع

يصحك من السدوب من لم يعرف الجراح

وهذه اثنا عشر مثالا من كل أمة مشهورة بالفكاهة أو مشهورة بجهلها .

غير أننا لو جعلنا عشر أضعافها لما تغيرت نسبة الموازنة بينهم ولا حرج

منها بتفضيل حاسم لأمة على أمة حين نقسب فكاهة . من تحريها

وشاع بين الفتيات زى الملابس القصيرة التى تكشف عن الصدر والسواعد والسيقان ، وعاد أحد الأزواج إلى بيته فى بعض تلك الأيام فاستقبلته زوجته متهلة وقالت له : أتدرى يا فلان ! إنهم يسيحون الفساتين بالتنسيط على عشرة أفساط . وقد تنهت الفرصة واشترت فستانا يزهر عليك سداد ثمة الكبير دفعة واحدة

فتنظر الزوج إلى امرأته التى كادت أن تبدو أمامه بغير كساء ، وقال وهو يظهر الموافقة على مصفى :

- أظن أن هذا هو القسط الأول من الفستان !

النوادر القرقوشية

إن الاستعداد لتأليف الفكاهة التى تنفس بها الأم عن صدورها فى أوقات الخرج يكاد تتساوى بين جميع الأم ومها - أو فى مقدمتها - لأم اسى لم تشتهر بالنكتة واشتهرت على نقيض ذلك بأنها تجهلها ولا تحسنها .

ونقول إن هذه الأم فى مقدمة الأم التى تؤلف النكات فى هذا الغرض لأنها فى الغالب هى الأم التى تبتلى بالخروج وتمز عليها حرية القول ، فلا يوجد فى العصر الحاضر نظير لهذه النوادر فى الأم التى تملك حرية النقد وتجهز بأرائها فى حكومتها وحكمها ، ولا محل للمقارنة بين الشعوب الأوروبية فى هذا الباب من أبواب الفكاهة لأنها لا تتساوى فى ظروفه ودواعيه ، وإنما تستطيع المقارنة بين النكات المتقدمة والنكات التى شاعت فى مصر على عهد « قرقوش » ودوتها « ابن ممتى » فى كتابه المسعى « الفاشوش فى حكم قراقوش » وليست كلها من تأليفه وابتكاره ، بل هى مما يشيع مجهول المصدر ثم يقاس عليه ويظل فى طى الكتمان إلى حين .

وأحدى هذه النوادر أو النكات قد سبق لها نظير فى النوادر التى استشهد بها فرويد وهى نادرة الحداد المحكوم عليه بالموت .

قيل إن غلاما لقره قوش قتل نفسا فحكم عليه بالشنق ، ثم تشفع لديه الشفعاء وقالوا له : إنه حدادك يتعل لك العرس وينحدمك ، فإن شنته لم تجد غيره ، فطر قره قوش ناحيه الباب ووقعت عليه على رحل ففاض فقال هذا القفاص لا حاجة بنا إليه ، فاشفقوه فى مكان الراكدار ، وهى وظيفة العلام الحداد عنده !

وعلى هذا المثال تجرى النوادر « القرقوشية » التى أثبتتها « ابن ممتى » فى كتابه أو تناقلها الرواة على لسان غيره .

• ومنها نادرة الرجل الذى أوثقه الناس وحملوه حيا ليدفنوه وهو يصيح فى التعش مستغيثا بقره قوش ، فلما سمعه قره قوش ترك المشيعين يحضون به ودل له : ويحك ! لا أصدقك وأكذب مائة من ورائك !

• وقيل إن قره قوش نشر قميصه فوق القميص من الحبل ، فتصدق بألف درهم وقال : لو كنت ألبسه ساعة وقوعه لانكسرت .

• وقيل إن جنديا نزل فى مركب ، وكان به فلاح وزوجته وهى حامل فى سبعة أشهر . فصدما الجندى وأسقط حملها فأخذ زوجها يتلابيه وفاده إلى قره قوش ، فقضى على الجندى أن يأخذ الزوجة ويطمئنها ويكسوها ولا يعيدها إلى زوجها إلا وهى حامل فى سبعة أشهر !

• وشكا إليه مدين أنه يجمع دينه ويذهب به إلى صاحب الدين فلا يحده ، ثم يأتى هذا فيطالبه ويلج عليه وهو خالى لوفاض لا يملك السداد ، فأمر قره قوش بحبس صاحب الدين حتى يعرف لدين موضعه متى جمع المال المطلوب منه ، ولا يصيح الدين على صاحبه بين البحث والتأجيل

• وكان لقره قوش باز يصيد به فطار الباز ولم يعد إليه ، فأمر بأغلاق أبواب المدينة ليرجع الباز إليه إذا أغلقت جميع الأبواب !

• وشكا إليه الفلاحون بردا أصاب القطن وأتلفه والتمسوا منه أن يعفيهم من الضريبة ذلك العام ، فأبى أن يعفيهم لأن لقطن إنما أصيب بالبرد لإهمالهم وقلة درايتهم ، ولو زرعوا معه صوقا لما أصاب التلف من برد الشتاء !

ومن باب هذه الحكايات عن قره قوش حكايات كثيرة يتناقلها المصريون عن الحكم التركي فى عصر المماليك وبعد عصرهم إلى أيام الخديوى إسماعيل .

ومب أن حاكما تعود أب يقتصر مالا من بعض الصيارفة ويكتب له وثيقة بها ثم يأمره بابتلاعها إذا جاءه فى الموعد مطالبا بحقه . ولا يزال يقتصر ويأبى السداد على هذا النحو ويضيف الدين الجديد إلى الديون القديمة حتى يئس الصيرفى من سداد جميع الديون ، فلما استدعى الصيرفى بعد ذلك جاءه ومعه ورقة شفافة ورجاه أن يكتب له الوثيقة عليها . . ليسهل عليه ابتلاعها فى موعد السداد

• ومنها أن والياً كان يجمع الضرائب ولا يقبل عذراً في تأخيرها ..
ولا يرى يقول لم يعتذر بقلة المال :

.. ما ؟ أليس لديك أربعون ريالاً ؟

وعند العوم من تكرار هذه « الأربعين » أن الرجل يملك أربعين ريالاً فلا يصدّر أحداً لملكها مثله ، وتقربوا دفائنه حتى عشروا بالثروة المجهولة ، أو لمطومة ، فلم يصرب الوالى بعدها أحداً بماطل في الضريبة ، وجعل يقول لكل معتذر :

- من أين لك أربعون ريالاً يا مسكين ؟ .. أنا لا أملك ريالاً واحداً من الأربعين ..

ومنها أن والياً كان يصلى في أغصان أيامه ويتبع الصلاة بالدعاء والنعيب وسأل الله أن يكفر له ذنوبه لأنه قتل أربعة

وسمعه زميل له فادعشه أن يستعظم هذا الذنب اليسير وينحب هذا الحبيب من أجل أربعة قتلهم وهم لم يسيءوا عدداً كبير ، فقال له كأنه يؤبه

- ألم تقتل في حياتك غير أربعة يا أحمق ؟

قال : « لا يا صاحبي .. أربعة من الترك ، أما الفلاحون فلا عداد لهم فيما أذكر »

وأشبه النواذر لو أحصيت لاجتمع منها مجلدات تروى على العشرات من أمثال كتاب الفاشوش عن حكم قره قوش ، وهي جميعاً من تأليف أمة مشهورة من قدم الرمس « بالقفش » والسكنة السريعة ، فهذا قولت هذه النواذر بؤادر الأمم التي لم تشتهر بالمكاهة في أوروبا الحديثة ظهر من المقابلة أن الاستعداد متقارب أو متساو بين جميع الأمم ، وإنما تبرز السكنة المصرية بطابع خاص بها وهو الجمع بين التفتيس عن خراج وبين وصف الحاكمين بالمعنة والسلافة ، وسب هذا الفارق أيضاً راجع إلى الظروف الاجتماعية لا إلى طبيعة الشعب في النفس الإنسانية ، فإن الحاكم الذي يصيبه السكنة المصرية من غير أهل البلد فلا يصير من اتهامه بالمعنة والسلافة واعتذار الحاكمين على الحاكمين بالمعنة والدربة ، ولكن هذا الاعتذار في أوروبا

الحديثة يصيب الحاكمين كما يصيب الحاكمين لأنهم من عنصر واحد ، فلا حاجة في النكتة هذه إلى أكثر من التفتيس عن المخرج وتثليل الحجر على الألسنة والأقلام

فكاهات عهود التحول

وأتى من هذه الموسم المكاهية التي تنفس بها الأمم عن صدورهم فكاهة أخرى أهم وأبقى أثر لأنها تشمل العهود المتحولة في حضارة واسعة تحيط بأهم كشيرة ، وتأتي هذه الفكاهة في أوانها حين تؤذن العهود بالتحول لتزعزع أركانها وروال مقوماتها ، فينبى لها نابغ ملهم في فن النقد المكاهي يجمعها في « شخصية » محترقة يجعلها هدفاً للسخرية والتسخيف أو يعمد إلى شخصية حيالية قائمة يلبسها ذلك الثوب ويودعها بقايا النفاق والتكلف والتعاليد الخاوية التي تتحلف بعد أجيال عدة في أعقاب العهود الدائلة التي أدنت شمسها بالأفول .

من هذه العهود المتحولة عهد الفتك وإشباع البطون والشهوات في القرن الخامس عشر للميلاد ، وقد تصدى له الأديب الفرنسي رابليه Rabelais (١٤٩٤ - ١٥٥٣) فمثل ملوكه وأبطاله في شخصيتين خالدين إحداهما شخصية جارجنتوا Gargantua الذي يلتهم الأدميين والأنعام نهماً ولا يشبع ولا يكف عن الطعام ، والآخرى شخصية بركروشول Picrochole الذي ضربت نفسه بالعدوان وهانت عليه النفس البشرية يزعمها لقليل من المال أو لنزوة من نزوات الساعة أو لمير شيء غير العتو والطغيان

وليس أدل من اصطحاب هذه المساويء في العهود الدائلة من آيات القرآن الكريم في سورة المجر حيث تمتع دول التبابعة والعراقة والجبابة جميعاً في أمثال هذه العهود :

« لم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات المهاد التي لم يخلق مثلها في البلاد وثمود الذين جابوا الصخر بالواد وفرعون ذى الأوتاد الذين طموا في البلاد فأكثروا فيها الفساد فصب عليهم ربك سوط عذاب إن ربك لبالمرصاد » إلى قوله تعالى : « بل لا تكرمون ليثيم ولا تحضون على طعام المسكين وتأكلون التراث أكلاً لما وتحبون المال حبا جما » .

وهذه المفاسد التي جمعتها هذه الآيات هي بعينها مفاسد العهد الذي مثله جارجنتوا في النهم ومثله بكروشول في الفتك والعلوان . وكلاهما بعد ذلك بالغ نهم على زيادة البغى في أحدهما وزيادة النهم في الآخر .

ومن المجهود المتحولة عهد القروسية في القرن السادس عشر بين نبلاء الأسباب على الخصوص ، فإن هذا العهد قد شاخ وشاء حتى بطلت فيه الشجوة والخماسة فأصبحت أكدرية حاوية يتعلق الخدوعون بطواهرها أو الحامدون على بقايا . وقد تصدى لهذا العهد كاتب أسباني من طراز رابليه هو سرفانتيز Cervants صاحب كتاب دون كيشوت الذي تضمن من أمثال العرب وكلماتهم الماثورة ما يكاد يسلكه في عداد الكتب العربية ، ولم يكن ذلك عبثاً أو لغواء بل كان من تمام التعبير عن العهد الأقل لأنه وافق شيوخ التقاليد العربية بين الأسبان وأم القارة الغربية .

وبعاصر هذه المجهود أو يسبقها بقليل عهد الألاعيب « الشريرة » الذي نشأ بين الولايات الألمانية على أيام النبلاء الذين قيل فيهم أنهم نصف أمراء ونصف قطاع طريق . وتمثلت الألاعيب هذا العهد في شخصية القروي أولسبيجل Eulenspiegel كان كالمخ لمشوه في تصوره لأولئك العابثين المحتالين الأشرار ، ويقال إنه عاش في برونزويك وأن توماس مورن Murner (١٤٧٥ - ١٥٣٠) الذي جمع نواتره بعد ديوعها نحو قرن من الزمان ، ولم تثبت نسبة الكتاب إليه ولكن ثبت ذبوع النواتر قبل ذلك بغير خلاف .

ثم جاء الكاتب البلجيكي شارل دي كوستيه Charles de Coster .

(١٨٢٧ - ١٨٧٩) فاستعار هذه الشخصية وأودعها روحاً فلكمية مرحلة كادت أن تجعلها نموذجاً للطبيعة الفلكمية في سذجتها التي أدت بالتحول عند نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين .

وحائعة المصنف في هذه المواسم الفكاهية كتب « أعاجيب البرود منشهاوزن » الذي ألفه الكاتب الألماني رودلف أريك راسب Raspe وأدار حوادثه أو نواتره على شخصية واقعية عاش صاحبها في القرن السابع عشر وعاد بعد خدمته في الجيش الروسي يصعد الأسماح بأخبار البطولة التي يرويها عن نفسه وحوار الشجاعة والدهاء التي امتاز بها في وقائع الحرب والسعارة بين الملوك والأمراء ، ومنهم أمراء المشرق في الأستانة والقاهرة .

نلت الشخصية الواقعية كارل مردريث مشهور (١٧٢٠ - ١٧٩٧) نموذج المصحر المدعاة بين عصر السيف وعصر سدفية ربيع بصرية على عينه أظرت منها الشرر فطلق الرصاص . وحذر من الأعاجيب أنه أراد الخروج من القلعة المحصورة فركب القذيفة التي صنت عليها فمادت به أدرجها إلى حيث أُرِد ، وكانت أعاجيب مشهوراً هذا نخامة العهد الذي راجت فيه أباطيل البطولة بعد عصر القروسية وقبل عصر السلاح الحديث ، وراجت فيه على الجملة أخبار التسيارات والرحلات مما يصلفه العقل أو لا يقلل التصديق

وهذه فكاهت ظهرت لمسات متشابهة بين فرنسا وروسيا وألمانيا وبلجيكا ونقلتها الأمم من انجريين ولشرفيين حيث تدب يدى القمر بمختلف اللغات ، ومن هذه الأمم من اشتهرت بالفكاهة ومنه من اشتهرت بجهلها وبطء الالتفات إليها . ولايسع الساقط عند المصنف أن يرجع الفكاهة في أحدها عن نكتة في سواه ، فرد كان عصر سكات في أعاجيب مشهور أنوع من نكات دون كيشوت ، وربما كانت نكتة الأسدية أحياناً أبرع من النكتة الألمانية ، وعامتها من نسق وحد وصفه واحدة تؤدي رسالتها في مسابقتها . تسجل حقيقة التي أسفرت عن المقالة بين الفكاهات القومية ودلت على أن الضحك - كالمناطق - مزية إنسانية توحد بانقوة كما توجد بالفعل حيث يوجد الإنسان ، وإن حذر من أن هو اختلاف بين الظروف والبيئات قبل أن يكون اختلافاً بين المصنف وأصوله على أن طبع الإنسان العامة لا تخو الفوارق بين المجتمعات في موقعها المتباينة ، ولا نحو الفوارق بين مجتمع بوحده في الأمة المختلطة والأصول المتناقضة ، وليس من الطبيعي أن تكون أمة الودعة كالأمة كدحة ، أو أمة العيبة كالأمة الصغيرة ، أو أمة التي صال عهدها بالخضرة ومزجتها كالأمة التي محصرت بعد وحشة أو مرت بها الحضارة ناشئة متقطعة ، ولا تشابه في الجند ولا الفكاهة أمة تربست منظمات والشائد ومما لا يحصى بها إلا عرضاً في الآونة بعد الأخرى

فمهما تنفس طبع الإنسان فسيفس بعد تربية للصفاة في الخد والفكاهة ، وفي العلم والعمل ، وفي التفكير بالدوق ، وفي الضرورات والكماليات .

[illegible][illegible]

وفى نيلها من نام بالليل بله
ولمست تبل الشمس من نام بالضحى
بها الفجر قبل الشمس يظهر دائما
بها الظهر قبل العصر : قبل بلا مرا
وبالشام أقوام إذا ما رأيتهم
ترى ظهبر كل منهم وهو من ورا
بها البدر حال الغيم يخفى ضياؤه
بها الشمس حال الصحو يبدو بها ضيا
ويسخن فيها الماء فى الصيف دائما
ويبرد فيها الماء فى زمس لشنا
وفى الصين صينى إذا ما طرقت
يطن كصينى طرقت مساوا
بها يضحك الإنسان أوقات فرحه
ويبكى زمان الحزن قبيها إذا ابتلى
وفيهما رجال هم خلاف نسايم
لأنهم تبدو بلوجهم لحي
والقصيدة الأخرى البياتية التى يقول فيها :
عجب عجب عجب عجب عجب
بقمر تمشى ولهها ذنب
ولهها فسى بيزها لين
يبعدو للناس إذا حلبوا
لا تغضب يوما إن شئت
والناس إذا شتموا مضوا
من أعجب ما فى مصر يرى
الكرم يرى فسيه رطب
لوسيم بها البصرهم كذا
فى الجميزة قد زرع القصب

زهر الكنان مع النسا
ن هـمـا لوفان ولا كـذب
كـيـهـود فى دير خلطوا
بنصارى حركهم طرب
وقناطر أم الحـمـمـن بهـا
ماء فى الجسفرة ينسرب
والمركب مع ما قد وسقت
فى البحر بطرف تنسحب
والخيمة قال الناس إذا
بصت فالحل لها طيب
الببيض إذا جاعوا أكلوا
والسممر إذا عطشوا شربوا
الناقصة لا منقار لها
والوزة ليس لها قصب
قور يبيض بشقبيته
وينام عليه فبيث قصب
والوز الفسق فى الأرض يلقى
كنا فى القس له زغب
لا بد لها من مسبب
خز . خز . خز . ما السبب ؟

وستمر بنا فيما يلى ألوان من النوار المنسوبة إلى جما يحسب بعضها من
نوار تحصيل الحاصل ، ويحسب بعضها من نوار الوهم أو القياس مع الفارق .
وبعضها من نوار الحال والمخالطة . وساعدنا هذا التقسيم على الرجوع بها إلى
مصادرها مع التحفظ والتماس القرائن الأخرى من التاريخ والمناسبات
والشواهد النفسية أو الاجتماعية .

جحا ونور هـ

جحا غير واحد

شيء واحد ثابت كل الثبوت في أمر جحا

ذلك الشيء الثابت - قطعا - أنه لم يكن جحا واحدا ولا يمكن أن يكونه .

لأن النوازل التي تنسب إلى جحا لا تصدر من شخص واحد ، ولا تزال دوافع اليقين باستحالة هذه السنة واضحة في ترربة وكل رواية يجوز الاعتماد عليها في تحري الوقائع ومن نسب بـه

يستحيل أن تصدر هذه النوازل عن شخص واحد لأن بعضها يتحدث عن أناس في صدر الإسلام ، وبعضها يتحدث عن أشخاص عصر المصور المعاصر أو عصر ترميز لك أو ما بعده من نهضات بالجيل .

ويستحيل أن تصدر عن شخص واحد اختلاف الشخصيات التي تصورنا في مجموعها ، فمهما ما يكون التعميل د . من جحا ، ومنها ما يكون فيه جحا صاحب الذكاء والناظر والطبع الساحر الذي يكشف عن الغفلة ويتناول على البلاهة ، ومن هذه الشخصيات من سئل فيه الحماقة بغير وراء ، ومنها من يتحاشق ويبدو في كلامه وقبحه أنه يتكلم ما يحمل وما يقول ستواء منه عن يدعون الحكمة والذكاء

ويستحيل أن تصدر هذه النوازل عن شيء صيغة واحدة لشاهد الشجاعت التي تروى عنها سواء في الأمكنة أو العادات و لأحلاف ، فقد يروى بعضها عن فارس ويروى بعضها عن سعد أو الجحار أو أسيا المصري أو غيرها من البلدان الشرقية

بل ربما قيل عن جحا أنه نصر الديار، التركي وقيل عنه أنه أبو المصنوع العربي العروزي ، وقيل عنه أنه من الروا ، الهكمتي كما يقال عنه أنه من أصحاب الحلالات والكرامات من الله وبين بالولاية وهم يحسرون بالهلهل واللاهة

ويستحيل أن تصدر هذه النوازل عن جحا هـ وحده كائنا ما كان ، لأنها تنسب - بعضها - إلى الجاهل من أمثال جبنقة وبهلول أو إلى الأكفاه من أمثال أبي نواس وأبي العيثاء .

وبما قبل المبدء يعرف النوازل وتقسيمها فنقول إنه تغريب لا مرجح أن نبلغ به مبلغ الحرم والتوكيد ، ولكننا لا نرى من أمانة البحث أن يحمل أو يعرفه عن المظهر ، فلهذا بعد كل ما يقال عن استحالة التقريبية ، أصدق المراكزين البسرة لنا في هذا المبحث وما حوى مجراه من الروايات المشاعة بلا إسناد نبلغ مبلغ الحرم والتوكيد .

لا - حجاج لم يصنع شيئا يريد الشبهة في أمر القتل سقاه من الدمار إلى الشر
و : نه يصنع شيئا يريد الشبهة بوضع الكش في مكانه ، وكان لكل منهما
مسبوحة هما صبح لولا الحماقة في الأب وفناء .

و لعل الطير من اشتهار اسم جحا حتى سمع به أبو مسلم يفسر لنا وضع
إيريات عنه بين الفرس أو تعتبره بينهم علما على البلاءة والفتاة يستنون
إليه ما شابه نوازه من الفكاهات الفارسية ، فليس في خبر جحا هنا غرابة بما
سب إليه أو سب إلى غيره ، ولك أن تقبل هذا الخبر دون أن تحتاج بعد إلى
نيس أو ناول

وكذلك نقرأ من جحا في غير كتاب الأمثال فلا تروى كتابا واحدا يستقي
عن شيء من التوفيق والتأويل ، لئلا يراه الأخبار التي تراست عنه وتلقها الرواة
محرورا كيف يصفونها في موضعها بين أخبارهم ومن تروى عنهم تلك الأخبار
ومن الأمثلة على غير مثال في غرضنا من هذه الرسالة أن نحيط بكل ما
وصف به جحا في كتب الألف المروى فإن الغرض منه كله أن تتأقن لا يستقر
على قرار ، ولكنا نغترى بما كتبه ابن الجوزي إذ يقول في أخبار الحمقى
ومعلمين إنه - أي جحا - دوى عنه ما يدل على دهاء ودكاء ، إلا أن الغالب
عليه عمل ، وقد قيل إن بعض من كان يماذبه وضع له حكايات ، وعن مكى
- إبراهيم - رأيت جحا رجلا كيسا ظريفا ، وهذا الذي يقال عنه مكذوب
فيه ، أن له خيرا يارحمهم ويكرهه موضوعا عليه .

وهكذا يسمع عن الرجل ما يدل على ذكاء وما يدل على تعميل ولا يقرون بين
الذكاء والتفكير فيحسبون أن نواذر التفصيل من وضع المفسرين عليه : ونشير ابن
الجوزي أناس يحسبون أنه من أصحاب الحلال والكرامات يكلم ولا يفتي أن
يؤخذ عليه كلامه بظاهره لأنه يعتمد فيه إخفاء الأسرار الإلهية بهذه
'مضحكات واشرعيات' ، وقد حسب بعضهم من السابقين رواة الحديث ثم
شكروا في حقيقة اسمه كما شكروا في حقيقة مسماه .

وأما بعد ظهور جحا التركي ، الملقب بتوجه نصر الدين ، فالحكايات منه
تتسب إلى رجل واحد وهي ما يمكن أن يتسب إلى عشرة متابعين في الرومان
والكائن والعقل والبراح ، وبعض هذه الحكايات متأخر إلى ما بعد اختراع
السلاعات التي تعمل في الخبث ومعهما متقدم إلى أيام الصحابة والمتابعين

ويروى على هذه الأحوال جميعا أن طبيعة الفكاهة تختلف بين تحصيل
الخاص والخاص مع الفارق والمحاولة والمغال ، ما يجوز أن يتفق عروضا هي مادية
أو قليل من الموارد ، ولكنه لا يتفق في المميزات والمات

ورحن قد نقرأ من جحا في كتاب واحد فنفهم أنه شخص موجود أو قابل
للوجود ، لأنه متماثل الأحاسيس مطبوع في تفكيره ونفسه على غرار واحد ،
ثم نقرأ عنه في كتاب آخر مروي صاحب الكتاب معصرا إلى تسويق نواذه
المتأقنة بأسادها إلى المعلمين والمتعلمين ، أو بانتهاء المتبرين على جحا ،
للكتابة والتشهير

يقول البيهقي صاحب كتاب الأمثال . « هو رجل من نواذر كان يركب أن
المعصر ، ومن حمقه أن هيمى بن موسى الهياشي مروي به وهو يعطى بطر
الكرو ، موشما فقال له . مهلك يا أبا الفهم ؟ قال أرى قد دقت يده
الصخرة ، نراهم ولست أبتدى إلى مكانها . فقال عيسى . كان يسمى أن تحمل
عليها علامة . قال قد عملت ماذا ؟ قال . سحابة في السماء كانت تظلمها
ولست أرى العلامة

ومن حمقه أيضا أنه خرج من منزله يوما يقلب فشر في دهمية منزله يقتل
فصخر به وجوه إلى بشر منزله فلما فيها . غير أن أباه أخرجه ورضيه وخلق كدما
حتى قتله ولما في البئر . ثم أن أهل القتل طافوا في سكة الكوفة يبحثون
عنه فتألفهم جحا فقال . في دارنا رجل مقتول ، فاطفروا أمر صاحبكم ؟ فعملوا
إلى منزله وأولوه من الشر ، فلما رأى الكيش ناداهم وقال ما هؤلاء أهل كان
لصاحبك قور ؟ فصيحوا وروا .

ومن حمقه أن أبا مسلم صاحب الدولة لما ورد الكوفة قال لن حوله : أياكم
يعرف جحا فيدموه إلى . فقال بقلين : أنا . ودعاه ، فلما دخل لم يكن
في المجلس غير أبي مسلم وبقلين . فقال يا بقلين أياكم أبو مسلم ؟
ثم يقول البيهقي بعد ذلك : « وجحا اسم لا يعرف لأنه معدول من حجاج
مثل صخر من عاصر . يقال جحا يجرحو جحرأ ادا رمى ، ويقال جحا الله
جحولك أي وجهك . »

وجحا هنا ، كما وصفه البيهقي ، شخصية موهوبة متأنفة ، لعل الخبر
الذي جاء عن أبيه في خلال الكلام عنه يفسر للرواية ما فيه من حيلة الحماقة

نوادير له وغيره

وعدت به . فقلنا . أن رجلا واحدا لا يمكن أن تصدر عنه جميع هذه الحكايات . وبو كانت مناسفة متساوقة تدل على عقل واحد ومزاج واحد وتحدث عن فترة واحدة وبيئة واحدة . فإتينا إذا فرضنا وجود هذا الرجل وجب ألا يكون له عمل إلا أن يأتي بتلك النوادر والأصاحيك ووجب ألا يكون لعشراته وأصحابه عمل غير العمل عنه وإثبات هذه الأحاديث بقوله ، وهو ما لم يحدث في حياة الهداة الأعلام الذين تنقل عنهم الإثبات فصلا عن الكلمات .

فلما عجب أن تكون حكايات جمعا من رجل واحد ، ولكنا لا عجب على الإطلاق في توارده هذه الحكايات ونلاقيها من أبعاد المصادر . ومهما يحظر على الناس من عراة والواقع يزيل كل غرابة فيه ويرينا أن هذا القصص من الحكايات وما هو أعرب منه . يتلاقى من أقاصى أوروبا إلى أقاصى أفريقيا إلى أقاصى القارة الآسيوية على امتدادها

ومثال ذلك قصة تروى عن جمعا وعن أبي نولس وعن رابليه الفرنسي الذي تقدمت الإشارة إليه . وفحواها أن باحرا بحيلنا رأى طارفا فتي . يتبع بالخمر العمار على رائحة شوائه أو طيبحه فطالبه شمس هذه الرائحة ، وحار الصغير في أمره حتى أنقذه حلال المشكلات بحل من مبيل دعواه . لأنه بد أمامه قطعا من الدراهم وقال له خذ رنين هذه الدراهم ثمننا لرائحة شوائك

ومن الذى روى هذه النادرة عن أبي نولس ؟

لم يروها كتاب بغداد أو دمشق أو القاهرة ، بل رواها الكاتب الإنجليزي Ingram في كتابه عن أمى نولس وأسطيره كما سمعها باللغة السواحلية واللغة العربية في أفريقيا الشرقية ، وهذه ترجمة القصة كما نقلها في كتابه عن أبي نولس ، قال إنجرام ما ترجمته بحرفه عن وجه التقريب

« إن تاجرا دبح معزة ومرو به مسكين فجلس إلى جانب القدر لعله يستنقع الخبز القمار باستساق رائحتها ، ثم لقي التاجر فقال له : إنك إليها السيد قد أحسنت إلى أمى إن محنتى رائحة معركك فاصطعمت بها هشا فأحد التاجر تلابيه وهو يقول له : الآن عصب كيف صاعب السكة من الحصد . فقد اختلستها أنت إذنى ولا فدرى . وسأفقه إلى هارون الرشيد - وقد كان شديد الحباية للتجار - فحكم على المسكين بتفريعه اثنتى عشرة روية يأخذها التاجر

ثمننا سكة ذبيحته ، وخرج المسكين يبكى لأنه لا يملك فلما من هذه الغرامة ، فوجد أبو نولس في الطريق وعطف عليه أبو نولس حيث علم منه سبب بكاؤه ، ووعدته أن يساعده ، ثم أعطاه اثنتى عشرة روية وأوصاه أن يغترب بها إلى النصب ولا يؤذيها له حتى يحضر هو مجلسه . ثم كان الغد فحاده إلى المجلس ورأى المسكين يعد الدراهم فأخذها منه ووثنها على الأرض ، وسأل التاجر : أسمعنت ربيها ؟ قال : نعم ، ومد يده إلى الدراهم يريد أن يقبضها ، فرده أبو نولس وصاح به : حسبك ، لقد وصل إليك الثمن ريتنا براحة ، فإذا كان المسكين قد شبع من راحة طعامك فأنت حرى أن تغلا يدك من ربي دراهمه ، ويرث الرقيات للمسكين ، وانصرف إلى دله .

هذه قصة تروى في سواحل أفريقيا الشرقية ، وتحدثون فيه بالرويات وهم يذكرون بقود بغداد ، وهذه النادرة بشيء من التصرف فيها تروى في قصص جمعا وتروى في قصص رابليه .

ومن النوادر ما يتوارد في خرافات إسبوع وحكايات ألف ليلة ، كحكاية الخمار ولثير مع صاحب الررع ، وقد جاءت في أوائل ألف ليلة بالعارة الآتية : « اعلمى يا ابتى أنه كان لبعض التجار أموال ومواش وكان له زوجة وأولاد وكان به تعالى أعطاء معرفة الحيوانات والطير وكان مسكن تلك التاجر الأرياف وكان عنده في داره حمار وثور فأثنى يوما الثور إلى مكان الخمار فوجده مكتوسا مرشوشا وفي مقلعه شعير مغريل وهو راقد مستريح ، وفي بعض الأوقات يركبه صاحبه حاجة تعرض له ويرجع على حاله . فلما كان في بعض الأيام سمع التاجر انشور وهو يقول للخمار هيا لك ذلك . أأ تعبان وأنت مستريح تأكل الشعير مغريلا ويخدمونك وفي بعض الأوقات يركبك صاحبك ويرجع وأما دائما يدحرت والضحى ، فقال له الخمار إذا خرجت إلى العيط ووضعت على رقبتيك أناف فارقد ولا تقم ولو صربوك وامتنع عن الأكل والشرب يوما أو يومين أو ثلاثة فبذلك تستريح من التعب وأخذه . وكان لتاجر يسمع كلامهما فلما جاء السوفى إلى الثور يعلنه أكل منه شبت يسيرا فاصبح السوفى يأخذ الثور إلى الحرت فوجده صعب فقال له التاجر : أأ الخمار وحرتك مكانه اليوم ، فلما رجع آخر النهار شكره الثور على تفصلاته حيث أراحه من التعب ذلك اليوم فلم يرد عليه خمار حواس ودم أشد الدامة ، فلما كان ثابى يوم حاء المزارع وأخذ الخمار وحرتة إلى احر النهار فلم يرجع الخمر إلا مسلوح الرقعة شديد

الضئف . فتأمله الثور وشكره وحملته ، فقال الخمار : أعلم أنى لك فاصح . وقد سمعت صاحبنا يقول : إن لم يغم الثور من موضعه فاعطوه للجزار ليذبحه ويعمل جلده قطعاً وأنا خائف عليك ونصحتك والسلام . فلما سمع الثور كلام الخمار شكره وقال : فى غد أسرح معهم . ثم إن الثور أكل علفه بتمامه حتى لحس المذود بلسانه . فلما جاء النهار خرج التاجر وزوجته إلى دار الثور وجلسا ، فجاء السواق وأخذ الثور وخرج ، فلما رأى الثور صاحبه حرك ذنبه . . وبرطع فصحك التاجر حتى استلقى على قفاه .

هذه القصة جاءت متصلة بغيرها فى ألف ليلة وليلة لمناسبة تخرج وراءها مناسبة أخرى على الأسلوب المطرد فى تسلسل الروايات بألف ليلة وليلة ، ولكنها جاءت فى خرافات أيوب متفردة ، على اختلاف المغرى ، بالمعبرة التالية :

« كانت معزة وحمار فى حوزة صاحب واحد ، وكانت المعزة تغار من الحمار لأنه كان وافر الطعام يكفيه ويفيض منه ، فقالت له : إن حياتك نصب دائم ، تدبر الطاحون وتحمل الأثقال ، فأنتصع لك بأن تجمع يوماً وتسقط فى حفرة تستريح بعدها ، فعمل الحمار بنصيحة المعزة وأصيب رجله إصابة بالغة من جراء سقطته ، وأرسل صاحبه فى طلب البيطار ليسأله رأيه ، فوصف البيطار للحمار مرقاً من طحال معزة وقال إنه دواء صالح لعلاج دائه . فذهبوا المعزة لمداداة الحمار .

فوالغزى من هذه الحكاية أن من نصب فخاً لغيره جر البلاء على نفسه ، وفى خرافات أيوب نادر أخرى يقل فيها التحوير ويتقارب فيها المغرى ، مما تناقله المشارقة عن جحا وأمثاله ، ومنها ما لم يرد فى الخرافات القديمة كأنه أضيف إليها بعد عصر أيوب أو بعد العصر المفروض له والخرافات ، ومنها ما هو قديم منقول عن الحكمة الموضوعية على ألسنة الحيوان ، وهى شائعة فى الشرق من الصين والهند إلى البلاد العربية على اتساعها وتباعد أقطارها .

ولا نرانا فى حاجة إلى انتظار عصر المطبعة أو عصر التأليف وتداول الكتب بين الأمم لتعمل هذه التوارد بين السودر وحكومات فى الشرق والمغرب ، وبين القارات الثلاث من العراق إلى الأندلس وفرنسا إلى أفريقيا الشرقية . فإن انتقال هذه النواذر على طرق الرحلات والقوافل أسبق جداً من كل تأليف أو طباعة . وقد كان الرحالة يطوفون البلاد من أقصى العالم الممور إلى أقصى ولا

سمر لهم فى الرحلة أشهى ولا أذل على حنكة السائح وطول مهله بالترداد على البلاد من أحاديث الحكمة والفكاهة وأطوار الناس وخرائب الأقطار .

خذها سروداً فى البلاد مقيمة سمرأ الذى سمر وزاد مسافر

إذا سمعت القصة فى بغداد لم يكن بعيداً عليها أن تسمع فى بلاد الشمال من أوروبا أو بلاد الجنوب من أفريقيا مع قوافل الرحالة والسائح الذين يسمرون بها فى سهراتهم ويتناصرون عليها بين المأثور عن أقوامهم وأوطانهم ، وليس العجيب أن تسرى هذه السودر هذه السريان المستعصم بين مرامى السياحة ومطامح السفر ، بل العجيب أن يكون للرحالة والسائح حديث غيرها فى لياليهم الطوال كلما فرغوا من أحاديث العمل وما إليه .

ولا ينتظر منا بعد هذه الفوضى الجحوى أن نبت فى نسبة النواذر كلها أو بعضها إلى صاحبها . لأن صاحبها غير واحد ، ولأن أصحابها للثمة لثمة صروب من خلق تصبغ النواذر لأحدها كما تصلح الآخر ، ولكننا نستطيع أن نقسمها على ثقة إلى أقسامها الواضحة من حيث الدلالة أو من حيث « الدور » الذى تؤديه ومنها ما يمثل الدكاء والحكمة ، وما يمثل البلاء والحماقة ، وما يمثل التباله والتعاقب أو التغايب ، ولا يقع اللبس كثيراً بين هذه الأقسام أو بين هذه الأدوار .

وستختار فيما يلى عشرين نافذة فى كل قسم من هذه الأقسام أو كل دور من هذه الأدوار ، ثم تتبعها بعض المراتب التى تساعدنا على نسبتها إلى أقوامها مع التحفظ والتوسع فى هذه النسبة الحرفية ، وأما النسبة إلى الأحاد من أصحاب اسم « جحا » أو غير أصحابه معروض لقراءتها الممكنة بعد ذلك على قدر المستطاع .

٦٠ نادرة

نواذر الذكاء والحكمة

١. آل خبيرة

كان جحا يتولى القضاء ، فجاءه رجل يستغيث به لأنه وجد طيبوره المسروق ، مع بائع فى السوق ، وأراد أن يأخذه منه فادعاه السارق لمعه وأنكره ، فأرسل جحا فى طلب البائع المتهم ، وسأل صاحب الطيبور عن شهوده ، فجاءه بشاهدين ، أحدهما صاحب حائه ، والآخر ماجن متعطل بغير عمل ..
وشهد الشاهدان بأبهما يعرفان الطيبور ويعرفان أنه للمدعى ، وعلامته أن فيه كسرا بأعلاه ورباطا بأسفله ، وليست معانيجه محكمة الشد والحركة وطابقت العلامة وصف الطيبور ، ولكن السارق طلب تركية الشاهدين وقال إن شهادة الحمار والماجن لا تقبل فى الشريعة ..
قال جحا : « نعم . وأما حين تكون الدعوى على طيبور فالخمار والماجن أصلح الشهود » !

٢. من راقب الناس

كان لجحا ولد يعصيه كلما أمره بعمل ، ويقول لأبيه : « وماذا يقول الناس عنا إن عملناه ؟ » ..

وأراد جحا أن يلقنه درسا يعصه ، ويعلمه أن ربه الناس غاية لا تدرك فركب حماره وأمر به أن يتبعه ، ولم يمض عير خطوات حتى مر ببعض النسوة فشتتمنه وقلن له : « أيها الرجل ! أما فى قلبك رحمة ؟ تركب أنت وتدع الصبي الضعيف يعلو وراءك ؟ »

فزل جحا عن الحمار وأمر اننه بركوبه ، ومضى مسافة غير بعيدة ، ثم مر بحماعة من الشيوخ يستشرقون ، فدى أحدهم كما بكف ، ولعنهم إلى حد الرجل الأحمق ، وهو يقول ويعيد : « لمثل هذا فسد الأساء ، وتعموا عقوى الآباء أيها الرجل ! تمشى وأنت شيخ ، وتدع الدانة لهذا الولد ، وتطمع بعد ذلك أن تعلمه الأدب والحياء ؟ »

قال جحا لولده : « أسمعك ؟ تعال إذن نركب الحمار معا » .

وما هي إلا لحظة ، حتى مر بهما جماعة من أصدقاء الحيوان صاحوا بهما :
« أما تتقيان الله في هذا الحيوان الهزيل ؟ أتركبانه معا ، وكل منكما يزن من
اللحم والشحم ما يحد على وزن الحمار » ؟

قال جمحا لولده : « الآن نخشى معا ونرسل الحمار أمامنا ، لنلتمن سوء القالة
من النساء والشيوخ ، أصدقاء الحيوان »

وما هي إلا لحظة حتى مر بهما طائفة من « أولاد البلد » الخيلاء
فجعلوا يعشون ويغيبون لهما . « والله ما يحق لهذا الحمار إلا أن يركبكما أو
تحملاه وتريحاه من وضاء الطريق » !

فمال جمحا إلى شجرة ، وأحد منها فرعا متينا وربط فيه الحمار ، وحمل
الفرع من طرف ووجه الطرف الآخر على كتف ولده . فهدا البلد كله وراء هذا
الركب العجيب . وإذا بالشرطي يقض هذا الرحام ليسوقهما إلى ليمارستان

قال جمحا لابنه في طريقهما مع الشرطي : « هذه يا بني عاقبة من يستمع
إلى القال والقييل ، ولا يعمل عملا إلا ابتغى به مرضاة الناس » !

٢. احصاء المناقضين والرقعاء

كان جمحا دائم الشكوى من أهل بلده ، يقول لكل من لقيه منهم أو من
الغريباء عنهم أنهم كلهم منافقون رقعاء .

ولامه هذا وراجع ذلك ، فعمد إلى إقناع اللاتمين والمناقضين بأسلوبه في
الإقناع . أسلوب المشاهدة والعيان ، فحلج باب الدار وحمله على ظهره وقال
لأول ساقض له في تشهيره بأهل البلد : « تعال معي واحسب » ! وعند
منعطف الطريق صاح به صائح من أهل البلد وهو يضحك : « ما هذا الذي
تحمله على ظهرك يا جمحا ؟ »

قال جمحا لصاحبه : « هذا واحد : أتراه لا يعرف الباب العويل العريض
الذي يسأل عنه ؟ »

٤. انصاع تعمل الأرجل

حمل جمحا أوزة مشوية إلى الأمير . وغلبه الجوع ورائحة الشواء في الطريق ،
فأكل إحدى رجليها

ثم وصعها بين يدي الأمير ، فسأله عن الرجل الناقصة أين ذهبت ؟

قال : « لم تذهب إلى مكان . . . » . وارتد برحمة حدة في هذا البلد .
ثم تقدم بالأمير إلى تاعدة القصر وأشر بهم سرب من . . . قائم على قدم واحدة
كعادته في وقت الراحة ، فدعى الأمير حرسه من . . . وأمره أن يشد على
سرب الأوز بعصاه ، وما كاد يغير حتى صرخ . . . يعلو هتافا وهماك على
قدميه .

قال الأمير : « رأيت ؟ إن أوز هذا سيدنا حذر عديمين ولم يخلق بقدم
واحدة » !

قال جمحا : « مهلا أيها الأمير . . . » . من إنسان بهذه العصا
يجرى على أربع » !

٥. مضطربه ويستدين

جلس جمحا يبيع زيتونه فسأوته امرأة : « يا . . . » . عن الزيتون الثمن الذي
طلبه . وقالت له : « إذا أردت أن تبيعني . . . » . أخبرتك به مؤجلا ،
فأنت تعرف زوجي وهو فلان من دلال » !

وتناولها جمحا زيتونة ، لمدونتها وبعدها وحققه من الثمن ،
فاغتفرت بأنها صائفة لأنها مرضت من سوء أوزها . في شهر ومضنا !

قال جمحا : « الآن بطل الخلاف ، لا مسأومة ، يا تاجيل . . . أتراك تظلمين
الله ستة ولا تظلميني إلى يوم القيمة » .

٦. تمسور في الاحمره

وسأله تيمور لنك الطاغية المشهور : « أين . . . » . كون مشواي في الآخرة يا
حوجة نصر الدين ؟ » .

فقال جمحا ولم يتردد : « وأين ترضى أن تكون . . . » . إن لم تكن مع جنكيز خان
والاسكندر وهرعون والمروء ؟ »

٧. تمس طاعيه

وسأله تيمور لنك ، وقد أحده معه : « . . . » . وجمع ملاسه ، لا مشرا
يدبره على وسطه . « بكم تشتريه الآن . . . » . صت عليك في السوق يا
حوجة نصر الدين ؟ »

١٢. المفضول

رأيت بعض معارفه في الطريق فقال له : « إنني رأيت الساعة رسولاً يحمل مائدة حافلة بالطعام للعائز » .

قال جحا : « وماذا يعني ؟ »

قال صاحبه : « أنهم يحملونه إلى بيتك »

قال : « وماذا يعنيك ؟ »

١٣. التفوق في العبادة

وسكن في دار ، فشكا إلى صاحبها أنه يسمع نرقعة في سقفها

قال صاحب الدار : « لا تصح إنه يسمع الله »

قال : « وهذا الذي أعتشه ، تتركه رقة فيسجد عليها ! »

١٤. حدود الأبوة

ورسل جحا : « هل يولد للرجل بعد بلوغ الستين ؟ »

قال : « يجوز ! »

قبل : « وبعد بلوغ الثمانين ؟ »

قال : « يجوز »

قبل : « وبعد بلوغ المائة ؟ »

قال : « نعم - إذا كان له حار في العشرين »^١

١٥. العظمة القادرة

وعرض عليه رجل كتاباً بالفارسية ليقرأه فتعامل برودة الخط ، وود له الكتاب . .

قال صاحب الكتاب محمداً : « وعلام إذن تضيع هذه العظمة على رأسك كأنها الرجي ؟ »^٢

فطلع الشيخ العظمة ، ورصمها حاسباً ، وقال له : « دوتك العظمة فأسألكها فإنها صاحبة العلم الذي تبيح »^٣

١٦. تعوير الخراف

ورفع رجل جحا على قفاه بعرض الطريق يريد أن يستخر منه : فأخذ

قال : « يا عيسى بن دينار ! »

قال تيمور : « ويحك ! إن ثمن هذا الخنز حسمون ديناراً » .

قال جحا : « وهذا هو الثمن الذي حسبته ! »

١٧. الحساب المبهوم

وإذا تيسر أن يصالحوا أموال الحاكم بمدينة « أقي شهر » فأتهمه باختلاس أموال الديوان ، وإذا ألكم بتمته بالحساب المكتوب على دهان الديوان المملح ... فأخذوا تيسر من يده وورقها وأمره بإبلاغها ، ثم أحال حكم المدينة إلى الخوجة نصر الدين .

وحال مرصد الحساب فجاءه الخوجة نصر الدين بجلود مطوية نشرها فوجد في عليها رقائق من الخنز مكتوباً عليها الحساب بالخلوى .

قال تيمور : « ما هذا ؟ »

قال الخوجة : « هذا الذي يحتمله جوفى يا سيدي . لاسي شيخ كان ولست حتى ضليماً كحماكك القديم »

١٨. أيهما أحب إليه

وكانت له زوجتان ، فجلس معهما يتسامر ، وطلب لهما أن تحرجاه مسكناً . أيهما أحب إليه

قال : « أنتما معاً حيثان إلى قلبي »^١

فالتفتا ولا ، أنك لا تستطيع أن تصحك منا بهذه المزاولة ، وأمامك هذه الحركة سحرية في إغراق إحداها ، فس منا تلقى بها في الماء الآن ؟ »

وحار في أمره فتبته ، ثم التفت إلى الزوجة الأولى وقال لها : « أذكر أنك تعلمت للسباحة قديماً يا عزيزتي »^٢

١٩. المكان الأضيق في الجبانة

ورسل : « أيهما أفضل ؟ المسير خلف الجبانة ، أو المسير أمامها ؟ »

قال : « لا تكن في الغمش ، وسر حيث تشاء » .

٢٠. العدة الأهمية

ورسل : « وماذا يستقبل المساح إذا برل في الماء ؟ »^٣

عقال : « يستقبل المكان الذي عليه ملاسه » .

جحا بتلاييه إلى القاضي ولم يقبل منه اعتذاره بالخطأ فيه ، لأنه ظنه من أعدائه الذين يمزحونه بمثل هذا المزاح الثقيل .

وكان الرجل العايب من معارف القاضي فأحب أن يتجبه من العقاب ، وحكم بجحا بأن يصغه كما صغفه أو يتقبل منه عشرة دراهم على سبيل الجزاء ، التوبص

وطمع جحا في الدراهم فسأل القاضي المدعي عليه : « أسمعك الدراهم » وطمع صاحبنا لغرض القاضي فقال : « كلا ، ولكنني أحضرها بعد قليل من است »

وأذن له القاضي بالإصراف لإحضار الدراهم ، فذهب ولم يعد . وطال الانتظار على جحا ، فأدرك حيلة القاضي واقترب منه كأنه يهمس في أذنه ، ثم صغفه صفقة غنيمة ، وقال له وهو يتصرف : « إذا عاد إليك الرجل بالدراهم ، فتخدها حولة مني إليك » !

١٧. دعوى بدلها

وادعى الولاية ، فسأله السامعون عن كرامته ، فقال : « أتريدون مني كرامة أعظم من علمي بما في قلوبكم جميعا ؟ » قالوا : « وما في قلوبنا ؟ »

« كلكم تقولون في قلوبكم أني كذاب » !

١٨. من يلد يمت

واستعد حلة كبيرة من حاره ثم أعاده إليه وفيها حل صغيره فسأله جاره : « وما هذه ؟ » قال : « هذه بنتها ، ولدتها عندنا » يتقبلها جاره ولم يسكر عنه

ثم استعاره مرة أخرى ولم يردّها ، فلما سأله عنها ، قال : « البقية في حاتك ، أبي ماتت عند في العرس » رحمها الله

قال صاحب الحلة متعجبا : « أيوت التحاس ؟ »

قال جحا : « من يلد يمت ، وقد يموت هي النعاس » .

١٩. ثمن الصلوة

وعطش في طريقه ، وهو يقطع من الماء في الصحراء ، فمر به أعرجي

مسيرة قرية ، عرض عليه جحا أن يبيعها إياه فلم يقبل بأقل من خمسة دراهم ، سرها جحا ، وجلس يأكل من صمام دسم كان معه ، واستضاف الأعرابي . بعد من الطعام ما أشبعه وأظماه ، فسأله شربة من القرية . . . فلم يقبل . . . بأقل من خمسة دراهم . . . وباع الشربة بثمن القرية !

من الحمار !

بصاع حمارة ، فأقسم ليبيعه إن وجدته بدينار واحد . ثم وجدته وندم على حله ، ولم يشأ أن يحنث في قسمه ، فاحتال عليه بالهمين ، وحفظ على نفسه ثمن الحمار ، وهرض الحمار في السوق وقد ربي عنقه حذاء قدما ، فجعل ينادي عليه : « الحمار بدينار والجداء بعشرة » . ولا يبعان على أفراد !

.. نكرام قبيل

أمره الوالي أن يعد مجنين البلد ، فقال : « بل أعد لك العقلاء . ومن هم كثيرون لا يحصرون »

.. يقص على القاضي

جاء الشرطي برجلين إلى مجلس القضاء ، وجحا عند القاضي يحدثه في حص شتونه ، فمر من الشرطي نصبة الرحين ، وقال إنه وجد في الطريق بين بيتيهما أقذارا ممنوعة وادعى كل منهما أن جده مطالب بإزالتها ، لأنه هو الذي وضعها في عرض الطريق .

وأراد القاضي أن يعيث بحج يسخر منه ، ويفصح دعواه ، لأنه كان يدعى نعلم ويتصدى للإفتاء ، فأحال عليه القضية ، وسأله أن يقضى فيها بالحق بين رحلي

فقل جحا مقترح القاضي ، وسأل الشرطي : « هل كانت الأقذار أقرب إلى نار هذا أو دار داك ؟ »

قال الشرطي : « أنها كانت في الوسط بينهما » .

قال جحا : « إنما يزيلها إذن مولانا القاضي ، لأنها في الطريق العام ، ومولانا القاضي هو المسئول عن المدينة » ؟

(1) Laughter incorporated

نواذر الحمافة والبلاهة

١. عن قدر الوضوء

توضأ جحفا ، ولم يكفه الماء لإتمام وضوئه ، وبقيت رجله اليسرى بغير وضوء ، فقام يصلي برجله اليمنى ولا يضع اليسرى على الأرض .
فسأله : « ما بالك تقف على رجل واحدة ؟ »
قال : « الأخرى غير متوضئة » !

٢. ما تكرر

رأى رجلا في الطريق لا يمر به ، فتبسط معه في الحديث ، ورفع الكلفة بعد عبارة أو عبارتين .
فمحب الرجل وسأله : « ألك بي معرفة فترفع الكلفة هكذا بيني وبينك ؟ »
قال : « بل حببتك أنا .. لأن ثيابك كثيابي ومشيتك كمشيتي ، ولكنك لست أنا كما علمت الآن ! »

٣. ترويح روجة

وحاول أن يبيع بقرة له فأعياه بيعها ، فرأه دلال في السوق ، تكفل له ببيعها إذا أسلمه إياها وأعطاه الجمل المعلوم ، وقبل جحفا ، فأخذ لدلال يتنادى على البقرة ، ويذكر منافعها ومحاسنها ، ومنها أنها حبل في ستة أشهر ثم جاء الخواط إلى دره يحضرون منه ويتعلمون إلى محاسنها ، فتذكر الصفة التي روجت سوق البقرة ، وقال للخواط :
« هي كما ترون وزيادة .. أنها حبل في شهرها السادس » .

٤. يريح كصابراح

ورأوه يركب حمارا ويحمل خرجه على كتفه ، فضحكوا منه ورموه بالعبث والدهبة ، وقال له قائل منهم : « ألا تعرف كيف تضع الخرج تحتك أو أمامك ولا ترهق نفسك بحمله وأنت راكب ؟ »
قال : « عدل من الله ، أراصى الحمار من حمل نفسي بأن أريحه من حمل حرجي » !

٥. أكبر خوخة

وكان في منديله فأكهة ، فسأله بعضهم : « ما هذا الذي في منديلك يا حجا ؟ »
قال : « لا أقول لكم . ولكني أعطيتكم أكبر خوخة إذا عرفتموه » .
قال السائل : « أنه حوج ؟ »
فانطلق قائلا : « أي ملعون أنياكم بأمره وهو مصرور » !

٦. أحصية معلولة

ورأى بعضهم أن يمتحنه فقال له : « إن عرفت ما في منديلي أعطيتك واحدة منه تكفي لعمل عجة مليحة » .
قال : « صفة لي ولا تذكر اسمه » .
قال صاحبه : « أنه أبيض وفي وسطه صفار » .
قال جحفا : « الآن عرفته .. أنه لفت حشوقه جزرا ! »
الحمد لله

٧. وضاع حماره فطلق يصيح وهو يسأل الناس عنه : « ضاع الحمار والحمد لله »

قيل له : « مهل محمد الله على صياحه ؟ »
قال : نعم ، لو أنني كنت أركبه لضعت منه ولم أجد نفسي » .
٨. أربعون يوما من رمضان

وكان من عاداته إذا صام يوما في رمضان أن يلقي بحصاة في جرة ، ورأته ابنته فألقت في الجرة ملء كفيها من الحصى ، وهي تظن أنها تساعد .
وسأله الجيران يوما : « كم بقي من رمضان ؟ »
قال : « أما ما بقي فلا أعرفه ، ولكني عليم بما مضى من أيامه » .
ثم عد الحصى ، فزاد على مائة وعشرين حصاة .
قال بينه وبين نفسه : « لو أنباتهم بهذا العدد لسخروا مني ، ولكني أنزل به إلى أربعين »

ثم خرج لهم يقول : « مضى من الشهر أربعون يوماً على التفریب » .
فتضاحكوا منه ، وتضاحك هو منهم وهو يقول : « إنه شهر طويل على
المثالمين ، فماذا تصنعون لو أنبأتكم بالعدد الصحيح ؟ » .

٩. الشمس والقمر

وسأله . « أيهما أرفع : الشمس أو القمر ؟ »
فلم يتمهل وأجابهم بيقين : « أنه القمر ولا مرء » .
وسأله . « ولم ؟ »

قال : « لأن الشمس تطلع في النهار حين يستغنى عنها الناس ، وأما القمر
فلا يطلع إلا في الظلام على حين الحاجة إليه » .

١٠. البحث في السور

ورأوه يبحث في أرض لاشيء فيها ، فسأله : « هم تبحث ؟ »
قال : « حاتم سقط مني » .

قالوا : « وهل سقط هنا وليس في الأرض أثر للخوام ؟ » .

قال : « بل سقط في الزقاق الذي هاك » .

قالوا : « وما بالك لا تبحث عنه حيث سقط ؟ » .

قال : « رأى حدودي للبحث في الطلام ؟ »

١١. حمار مصوح

اشترى حماراً واقتاده برمام طويل ، فتعفله لصان ، ذهب أحدهم بالحمار ،
وربط الآخر نفسه في مكان » .

راثمت جحا فرأى إنساناً في مكان الحمار .

فاستعاذ بالله ، وسأله : « أين الحمار ؟ » .

قال : « أنا الحمار ، أعادني الله إنساناً ببركتك كما كنت بعد أن سخرت
حماراً لدعاء والذتي على » .

شارك له جحا ، وأطلقه وهو يوصيه بطاعة أمه ويحذره العودة إلى إغصابها ،
وحر الغضب من الله عليه بدعائها .

ثم عاد إلى السوق بعد برهة ليشتري حماراً غير ذلك الإنسان المصوح فرأى
الحمار بعينه في يد الدلال ، فقال على أذنه وهمس فيها قائلاً : « لن تنفك
بركتي بعد مسختين ، ولن أشترك وأنت بهذا العصيان ! »

١٢. نصف بنصف وتم الدار

وكان يشارك على دار ، فباع نصفها الذي يملكه ليشتري بثلثه نصف
الآخر ، وتحلص له الدار بغير شريك !

١٣. دابة على رمح

ونام في الخلاء ومعه عكاز طويل ركزه ووضع صرة النقود على رأسه لكيلا
ينالها أحد .

فراه لص وعرف غفلته . فأخذ النقود ووضع في موضعها روث دابة وتيقظ
جحاً ، فوجد الروث في مكان الصرة ، فلم يعجب لسرقة النقود ولكنه عجب
للدابة التي استطاعت أن تصعد على عكاز تصعب به ذلك الصبيح

١٤. مكافأة معقولة

وحمل إلى تيمور رمانات باكرة ظهرت في غير أوانها ، فرصى عنه تيمور
وأرصاه

ثم طمع في جائزة أخرى ، فجمع رؤوساً من اللفت ليهدىها إليه . فقال له
بعض جيرانه أن اللفت لا يصنع لإهداء الملوك ، فذهب إليه بنحبة من التين
فهو لطف وأحلى .

واستكر تيمور أن يهدي إليه التين وهو يملأ الأسواق ، وأحب أن يكف جحاً
عن طمعه ، فأمر الخند أن يقدفوه بالتين واحدة بعد واحدة .

فوقف جحاً يتلقى الضربات على رأسه وعلى وجهه وعلى عينيه وأنفه وهو
يصحك ويدعو للجار الذي أسدى إليه المصيبة الصادقة .

واشتد عجب تيمور من ضحكه ودعائه ، فأمر الجند أن يسكروا عن صريه ،
ليسله عن سر ذلك الضحك وذلك الدعاء .

قال : « إنه سر عظيم ، لو كان اللفت في موضع هذا التين ، لتهشم رأسي
وأفقت عياني » .

وسألوه : « ما طالع نجمك ؟ » .

قال : « ولدت والشمس في برج النيس » .

قالوا : « لا يوجد في السماء برج يسمى برج النيس ، ولكنك تعنى برج الحدى »

قال : أفمن مولدى إلى اليوم لا يصبح الحدى تيسا ؟ » .

١٦- كيف يعرف يمينه ؟

وانطفأت شمعة في داره فطلبت منه زوجته أن يناولها إياها من يمينه قال :
« يا حمقاء ! وكيف أعرف يمينى من شمالى في هذا الظلام ؟ » .

١٧- أدب مع التلاميذ

وركب بقلته مستديرا رأسها فسأله تلاميذه : « لماذا لا تمعدل في ركوبك يا مولانا ؟ »

قال : « هذا هو الاعتدال ، أدير ظهري لرأس البغلة ولا أديره لرؤوس
الآدميين ! »

١٨- يسمع صوته من بعيد

ورأوه يوما وهو يغنى ويجرى ، فسأله : « ما بلك تغنى وتجرى ؟ » .

قال : « أحب أن أسمع صوتى من بعيد ! »

١٩- لماذا ينتشرون ؟

سألوه : « لماذا ينتشر الناس في جوانب الأرض ، ولماذا يذهبون ذات اليمين
وذاات اليسار كل صباح ؟ »

فتأمل قليلا ثم قال : « لو ذهبوا إلى ناحية واحدة ، مات بهم الأرض
وسكنت بهم في هوية ليس لها قرار ! »

٢٠- لماذا لا تاكله ؟

ومر بفرن تصاعد منه رائحة الخبز الساخن . وهو يشتهي ، ولا يقدر عليه
فخلو يده . فاتجه إلى الفرن وسأله : « لك كل هذه الرغفان ؟ » .

قال : « نعم » قال : « ولماذا لا تأكلها يا أحمق ؟ » .

نواذر التعاقب والتسالة

وهذه نواذر منسوبة إلى جحا تتوسط بين الحكمة البينة والحماقة البينة ، لا
تقتصر في اختيارها على النواذر التي يصطعب فيها الخدمة ويتكلفها كأنه يمثلها
ويستعيرها ، ولكننا نختار من هذه النواذر كما نختار من النواذر التي لا تحسب
بصبيتها من الحكمة ولا تحسب من الحماقة ولكنها تتوسط بينهما وتغلب عليهما
هذه مرة وتلك أخرى ، وكلها قد بسست إلى جحا كبست بموضوعها أو
بمعناها إلى دوى السمعة العكاهية من أمثاله

١- أحمق وحمق

رأه الطحان يأخذ من قفص الناس ويضع في قفصه ، فصاح به : « ما هذا يا
جحا ؟ »

قال جحا : « لا تؤاخذنى فإننى رجل أحمق » .

قال الطحان : « لو كنت أحمق لأخذت من قفصك ووضعت في قفص
الناس ! »

قال : « ويحك ! أنا أحمق واحد ، ولو صنعت كما تقول لكنت أحمقين ! »

٢- ما لا يحتقر

ولقبه بعضهم بلهو فقال له : « أب هه بلهو مرأناك تقطع إحداها
لأخرى » .

ولم يشأ أن يدع مجلسه فسأل الرجل متضاحكا : « أقلت إحداها للأخرى
شيثا يتعلق بالعمر ؟ »

قال : « كلا »

قال : « إذن لا ادعى لبوساطة ، فإنها مشككة سليمة »

٣- مرق مرق المرق

جاءه ضيف ريفى ومعه أرنب فأكرمه وشيعه كما استقبله بالخمرة
والتحية

ثم مضى أسبوع وجاءه ضيف من بلدة صاحب الأرنب وقال له أنه جاره
القريب .

ثم مضى أسبوع أو أسبوعان وجاءه من تلك البلدة جيران كثيرة يزعمون جميعا أنهم جيران الرجل في داره أو حقله أو دار أحد من أهله .

فأجلهم جميعا على السماط وجاءهم بطست كبير فيه ماء عال ، وأوما إليهم قائلا : « تفضلوا فكلوا من مرق مرق الأرنب ، يا جيران جيران صاحب الأرنب المشنوم ! »

٤. يسر ولا كالابل

وصعد على شجرة يقطف من ثمرها فحصر صاحب البستان وفاجأه وهو على تلك الحال .

قال صاحب البستان : « من أنت يا هذا ؟ » .

قال جحا : « أنا بلبل أنقل على الأغصان » .

قال صاحب البستان : « أسمعنا إذن من غنائك أيها البلبل العجيب » .

فتفنى جحا بصوت لا يسمع ولا يشبه تغريد البلبل ، وقال صاحب البستان : « ما هذا بتغريد بلابل » .

قال جحا : « هاتها واسمعها ، ألم تقل إنني بلبل عجيب ؟ » .

٥. مصيبة أكبر من مصيبة

ونظر تيمور إلى وجهه في المرآة بعد أن تنعم وتعود معيشة القصور فانتفض لمظهره القبيح ، ولح وزيره انقباضه فأخذ يواسيه على عادة الوزراء ، يسرى عنه ، وقال له فيما قال : « مثلك أيها الخاقان الأعظم لا يأسى على جمال الوجوه وقد أعطاك الله بسطة في الجسم وبسطة في القوة وبسطة في الثروة والسلطان ، وإنما يأسى على جمال الوجوه النساء وأشياء النساء من الرجال » .

فانيسطت أسارير الطاعية ، وبتم راضيا عما قاله الوزير ، ولكنه التفت إلى الخوجة نصر الدين فراه يبكى ويستحرق في البكاء .

قال له : ما خطبك يا خوجة نصر الدين ؟ أنا صاحب المصيبة تحليت وأنت تأبى أن تتسلى ؟ » .

قال جحا : « معذرة يا مولاي ، إن مصيبتى أكبر من مصيبتك أضعافا مصاعمة أنت نظرت إلى وجهك مرة فانتفضت ، فمادا أصنع أنا الذي أنظر إليك بالليل والنهار مرات ؟ » .

٦. نقل

دخل لص منزله وحمل بعض أثاثه ، فحمل هو بقية الأثاث حتى دخل وراء اللص إلى داره .

ونظر اللص وراءه فراه يدخل الدار ، فسأله : « من أنت يا هذا ؟ » .

قال : « أنا صاحب هذه الدار التي نقلت إليها ! » .

٧. كلهم محزون

اختصم رجلان من أصدقائه وجاءه أحدهما يعرض عليه شكواه ، فقال له : « أنك محق في شكواك أيها الصديق » .

وجاءه الصديق الثاني في اليوم التالي فعرض عليه شكواه فقال له كما قال لخصمه : « أنت محق أيها الصديق » .

وكانت امرأته تسمع القصتين فسخرت منه قائلة

« يالك من منافق ، حصصا محتفما ، وكلاما محق في شكواه ؟ ! »

قال : « ولماذا تغضبين ؟ أنت محقة أيضا فيما تقوين ؟ » .

٨. تنصب الديبا

وأراد أن يتزوج ، فبى دارا تتسع له ولأهله ، وطلب من النجار أن يجعل حشب السقوف على أرض الحجرات ، ويجعل خشب الأرض على السقوف ، فراجع النجار دحشا ، ولم يفهم ما يعنيه .

قال جحا : « أما علمت يا هذا أن المرأة إذا دخلت مكانا جعلت عاليه سافله ؟ أقلب هذا المكان الآن يعتدل بعد الزواج » .

٩. خروف عسى عيبه

وأرسله أبوه يشتري له رأس خروف مشوى بأقل من ثمنه ، فأكل في الطريق لسائه ، ثم راودته نفسه فأكل عينيه ، ثم أكل أذنيه ، ثم أكل شواته (جلدة رأسه) ومنحه ، وذهب به إلى أبيه فجمجمة فخره .

فجعل أبوه يقلبها ويسأله : « أين محه ؟ »

فيقول جحا : « كان محبونا بغير عقل » .

فسأله : « أين عيبه ؟ »

فيقول جمعا : « كان لسي » .

ويسأله « وأين شوته » ؟

فيقول جمعا : « كان أفرع » .

ويسأله : « أين لسانه » ؟

فيقول « كان أحرس أعجم »

قال أبوه . « فاذهب رده إلى صاحبه »

قال : « إنما اشتريته بقليل الثمن على البراءة من كل عيب » .

١٠. العصاب قبل الدنوب

وباول بنته الصغيرة جرة قلاها ، وحذرنا أن تكسرنا ، وأنذرنا لئن كسرتها ،
ببصمنا هكذا ، وأردف الإنذار على الأثر بصفحة قوية أبكتها ..

فنظر إليه عابر طريق ولامه على ضرب البت الصغيرة في غير جريرة ، وقال
له : « انضربها قبل أن تكسرها » ؟

قال : « يا أحقق ، إنما اضربتها لتعرف لعم العقاب فتحذره ، وأما بعد كسر
الجرة فما المائدة من ضربها ؟ » .

١١. العائل الأكبر

سأله الأمير « كم عيالك » ؟

قال : « سبعة » !

فأعطاه لكل من عياله مائة درهم ، وخرج جمعا ، ثم عاد إليه على الأثر وهو
يقول : « سبت واحدا أيها الأمير أنفق من مالي عليه كما أنفق هؤلاء » .

قال الأمير : « من يكون يا ترى » ؟

قال : « أنا أكبر عيالي أيها الأمير » .

١٢. ياكلون بالصرب

ودهب إلى قونية ، فاعترضه في طريقه دكان حلوى تعرض فيه أصناف
الغطائر والفاكهة المسكرة صابحة شهية فأهوى عبيها يأكل منها يلا استئذان ،
وأهوى صاحب الدكان عليه بالعصا يريد أن يحول بينه وبين حلواه ، فتغايى
جمع وراح ينشئ على أهل قونية ، ولم يزل يقول : « يالكُم يا أهل قونية من قوم
كرام ، تطعمون الناس بالعصا والكرباج » !

١٠٨

١٣. ماذا يفعل الحذاء ؟

وليس حذاء جديدا ، فنظر إليه بعض الشطار وأرادوا أن يحتالوا عليه
ليسرقوه ، فسألوه : « أتستطيع أن تصعد على هذه الشجرة وتأتي بشيء من
ثمرها » ؟

قال : « نعم . فكم جعلتم » ؟

فأعطوه ما تيسر لهم وانتظروا أن يخلع حذاءه ليصعد ، فلم يفعل ، بل صعد
على الشجرة ومعه حذاؤه تحت أبطه .

قالوا : « وماذا تصنع بالحذاء على الشجرة » ؟

قال : « إذا ألقيت إليكم الثمر فماذا يعنيكم من الحذاء ؟ .. أما أنا فلعلني
أحدلني طريق سفر من أعلى الشجرة فأذهب ولا أعود إليكم » .

١٤. لولابي كمي

وذهب إلى وليمة شيب العمل ، فطرده الخدم من الباب فعاد إليهم بشيابه
المدخرة ، وعليه حلة من الخلل التي يخلعها عليه الأمراء ، فأكرموه وتقدموه إلى
مكان المائدة . فغمس كفه في الصحاح واحدة بعد واحدة ، وطفق يقول له
كأنه يتاجيه : « كل ، كل يا كمي ، فلولاك ما وصلت إلى هذا الطعام » !

١٥. ماذا أصاعت ؟

وقيل له : إن امرأتك أصاعت عقلها ، فأطرق يتأمل ، وقام إلى داره يبحث
فيها

قالوا : « ما تصعب يا حيا ؟ »

قال : « إنكم تقولون أنها أصاعت شيئا ، وإن يكون ذلك الشيء عقلها .
فإنسى لا أعرف بها عقلا تصبغه » !

١٦. بالدور

وقيل له : إن امرأتك تتردد على البيوت وتطيل المكث فيها .

قال : « غير صحيح ، ولو كان صحيحا لوصلت إلى دارنا » .

١٧. اصدق من الحمار

ورجاء بعض جيرانه أن يعيره حماره ، فاعندره له بدهابه إلى الغيط ثم نهق
لحمار وهو بكله ، فعانه الجار قائلا : « ليس هذا حمارك ينهق في الدار ،
وأنت تزعم أنه ذهب إلى الغيط » ؟

قال : « سبحان الله ، تكذبي ومصدق الحمار » ؟

وسأل أمراءه ، وقد جاءها برطل من اللحم : « لافأ يصلح هذا ؟ »

قالت : « يصلح لكل شيء ، »

قال : « فاطبخي عليه إذن كل شيء . »

١٩. خمسة الله

واختاره قوم للقسمه بينهم فسلكهم : « أترضون قسمه الله أو قسمه عبيده ؟ »

قالوا : « بل قسمه الله . »

فأعطى أحدهم درهمين ، وأعطى الثاني دينارين ، وأعطى الثالث شاة ، وأعطى الرابع سيرا عليه خفيه ، واستبقى سائر التركة بين يديه .

قالوا : « وبلك ! أعده قسمه الله ؟ »

قال : « اضربوا حولكم فكمموا قسمه الله وحكمة الله . »

٢٠. مضموم موصوف

وطلت منه أمراءه أن يعود إليها في طريقه من المسجد بدواء موم لعلهم الذي يوزقهما بالذكاء والعياض

فماد وليس معه غير الكتاب الذي يقرأه

قالت : « لعلك نسيت الدواء ؟ »

قال : « معاذ الله ، هذا هو الدواء ، وقد جربته اليوم في الكبار ماسو جميعا ، فحريه أنت في الصغار »

موازين غير محكمة

هذه الموازين الستون التي تقدمت في الفصل السابق تصور لنا أقسام الموازين التي نسب إلى جحا . وقد نسب إلى غيره ، ومنها ما يسمى عن حكمة ظاهرة ، وما يسمى عن ملاحظة ظاهرة ، وما يسمى عن ملاحظة مستترة بين الحكمة والملاحظة

وتنبر إليها المادرة التي نه نسب إلى مصادر متعددة من الحكماء والخلفاء والخميين ، وبعضها يزوي عن الناس في المرت الخديث كاللادرة التي تزوي عن الشجار من لمزائن ، فإن الأولى تزوي عن مالبين وطبيعه والثانية تزوي عن حوله سميت لا كانت إلا عذري 'الشهور' الذي قيل به 'نه أحسن الناس إلا حين يتأرون لستم مهر يدين من 'سكم' بناس

قيل إن نابليون سأل طبيبه حين كان مشغولا بأمر ولاية العهد : « هل يولد للرجل في الستين ؟ وهل يولد له في السبعين ، وهل يولد له في الثمانين ؟ » فكان جواب الطبيب عن ابن الستين نعم ، وعن ابن السبعين ، نعم في الفترة ، وعن ابن الثمانين أنه يولد له إذا كان له جوار في العشرين . .

وقيل إن امرأة حوله سميت وأخته تشاجرتا وهو غابت عن المنزل ، فأنكره أحد جيرة وأساء لمر هذه لشاجرة ، فسأله : « هل قالت إحداهما للأخرى أنت شوهاء ؟ قال 'نحار' و كلا » قال : إذن هي مشاجرة مأمونة .

وقد سميت الإشارة إلى موازين متشابهة بين الحكمة المصرية والحكمة في البحر وروما الوسطى ، ولا يصعب تحليل ذلك بتوارد الخو طر في الجرب السسيط على سؤال واحد أو سؤالين ، وقد يحلل الكثير من ملاحظات العربيين على الموازين التي ترجمت لهم في العرون الوسطى وقد يكون التشابه من تلك الموازين إضافة جديدة في الكتب المنقوعة لم تتداولها السنة الناس قبل ذلك

إلا أن السواد التي لا شئت في مصدرها الشرقي كثيرة بين الموازين المسوبة إلى جحا وأمثانه ، وهي على 'أحقة' بوازين 'الروحين' والقصاة الدسبين والعصبات التقنية وبوازين الصيام والصلاة واعتناؤي وما هو من قبلها

فهذه الاشك في مصدرها الشرقي من تخوم الصين إلى آسيا الصغرى وادي النيل ، فأين هو مبداء النسبة الصحيحة بين كل هؤلاء الأقوام والأصهار والأقطار ؟

في النسبة التاريخية بعض المعايير النافعة على غير حجم وبقين . لأن النادرة قد تقع في القرن الثاني أو الثالث وتصحف بعد ذلك لتوائم القرن الذي نقلت إليه ، وما لم تكن مكتوبة في مرجع معروف التاريخ فلا سبيل إلى الحزم ينسبها إلى زمن من الأزمنة على وجه اليقين .

والمعيار الآخر « تقريبي » كالمعيار التاريخي لا ينتهي بنا إلى الحكم ولا يسلم من اللبس والاشتباه ، وذلك معيار الخصائص القومية التي تميزها بالطن وتقارب بالطن بينها وبين النواذر التي توائمها ولا توائم غيرها . .

وقد أسلفنا أن طبيعة العرس تملب عليها الصورية وخواصه الدسوماسة ، وأن طبيعة الترك يغلب عليها تحصيل الحاصل مبالغة في الواقع ، وأن طبيعة العرب يغلب عليها الخيال والقياس المنطقي ، وتبالغ بها المكاهة فتجنع بها إلى الوهم والقياس مع الفارق الواحد أبو الفوارق الكثيرة .

أفلا يعقل أن العبقرية التي أخرجت لنا القول بتسحير الجسد والأعضاء لحالات الروح تخرج لنا في المكاهة - والمحاولة الدبلوماسية - قصة الأوزة التي يتخلق لها الخوف رجلين والرجل الذي يتخلق له الخوف أربع إذا عدا وراه من يشد عليه بالعصا ؟

جائز أو راجح ، وهذا غاية ما هناك ، ومثلها نادرة الولد العاق الذي مسحته دعوة أمه حمارة ثم عاد إلى الأدمية ببركة الشيخ .

وكذلك يعقل أن تحصيل الحاصل يخرج لنا في بلاد الترك قصة المرأة التي يقال لزوجها أنها تدور في البيوت ، فبأخذ بالواقع - المفرد - ويقول : لو صح ذلك لدخلت إلى بيتنا .

ومثل هذه القصة قصة الرجل الذي يصطنع التعمية ويعين أنه يعطى أكبر «خوخة» في المديلة لمن يخبره بما فيه ، ومثلها قصة الرجل الذي يضربونه لأنه يأكل الخلوى فيحمدهم لأنهم يكرهونه على الأكل بالسوط والعصا .

كذلك يعقل أن القياس مع الفارق يخرج لنا نادرة الرجل الذي باع نصف الدار ليشتري النصف الآخر وتخلص له الدار بتصفيتها ، فما كل شراء يجمع بالشراء بين الصميم ولكنه قياس مع الفارق لشراء على شراء ، وخماسة التي أدخلت في روع صاحبها أن السحابة علامة صالحة للمحفرة التي تحفر تحتها - هي

معينها التي ترى على الرمح روفة فلا تفهم منها إلا أن الدابة صعدت على الرمح . لا يبقى عليها إلا البحث في خريق تصعود . .

هذه معايير تقريبية لا تأخذ بها ولا يهتمها ، لأن إهمالها إهمال للدراسة واسعة من دراسات العصر قابلة للمزيد من التوسع والأحكام

وقد تعمدنا أن نختر بين السوادر السد غائفة من أشهر السوادر بين العامة والخاصة في البلاد العربية ، لأنها اشتهرت حتى أصبحت علم على حد دور غيره من حمهرة السد التي تتناقل سور ولا حاحي من قم إلى قم ولا ترجع إلى الكتب والأوراق ، فليس من الخائز أن سقطها من كتب يدور فيه الكلام على حد وما يسب إليه من السوادر والحدود ، ومعظم نودو حمها من قبيل هذه السوادر الساذجة في تأليفها وموضع حكمها فيها ، ولعلها ثلاثة أربع المجموعة التي بلغت قراءة ستمائة ، وعندها صفة التركبة كنها إلا القليل الذي تائر من صدر الإسلام إلى أيام الدولة العباسية بين كتب الأدب والعكاه . وفيها من الأسلوب الأدبي والندوق العسى . ليس في معظم النواذر الشائعة فإن هذه السوادر الشائعة أقرب إلى العديه من تتناقلها العجائز لتسلية الأطفال ومن هم في مثل مداركهم من السدح والحيلاء ، وموضعها بين المحفوظات الشفوية التي يسميها الغربيون بالفولكلور وضع من موضعها بين كتب الأدب والعكاه العبه

جححا في الأدب

جححا في الأدب ، أو على الأصح النواثر الجحوية في الأدب لأن هذه النواثر على أنواعها موزعة بين زمرة من الحمقى والمحمقين بدأت الكتابة عنهم من القرن الأول للهجرة واشتهر منهم في الأدب العربي وهط يبلغ العشرة ويزيد غيرها ، منهم هنتقة الأحقق وياقل العبي وأشعب الطفيلي وبنان الموسوس وأبو العبر لمجدلق ومريد سديس والحموى الشاعر ، وغيرهم من المحتالين بالحماسة أو التطفيل أو الخلاعة ، وليس فيهم من الخلقة الجحوية إلا اتساع كلمة الغفلة للاشتقاق بين غافل ومتغفل ومتغافل ، على حد ما بين هذه المشتقات من المعاني والألوان

وهؤلاء الذين وردت أخبارهم في كتب الأدب أرفع في طبقة «الذوق الفني» من جححا في حمله بؤره وأخباره ، فليس فيهم من يسف بأصاحبيته إلى الصبيانية أو السداجة السخيفة كما يلاحظ على الكثير من نواثر جححا التي وصلت إلينا مضافا إليها نواثر المجموعة التركية ، وهي محيطة بما وضعه الترك وما وضعه غيرهم من عامة الشعوب الشرقية الإسلامية ، وبعضه مما وضعه غير المسلمين من جيرون الترك العثمانيين - كالأرمن - ونسبوه إلى جححا المسمى عندهم باسم «أربس»

وعنه هذه المقاو فيما أثبتته المؤلفون المتأدبون أنهم أسقطوا المارد الغث من النواثر ، ولم يشبثوا إلا ما فيه معنى وله طعم في مذاق الأديب والفنان ، فلا نجد - مثلا - في تلك النواثر ما تحسبه من تأليف الصبيان أو أشباه الصبيان من السذج والجهلاء ، وما فيه دليل على الغفلة أو التغافل فهو دليل عليهما بحق في عرف الدكي اللبيب ، وليس مما يكثر فيه الخلط ليحسب من الغفلة أو التغافل في عرف تصغار والإعرار .

ولو كانت كل النواثر الجحوية من قبيل - ندر الميزيد أو الحموى لكانت طرزا من هذا الفن لا يعمل له طراز في لغة من اللغات . ولكانت بابا من أبواب الدراسات الصاعدة للمعاهدة العنية والمعارض النفسية التي يعتمد عليها من بحث في البحث عن شواهد التحسن

فمن كلام الحملونى حين لاموه على التحامق : « إن حماقة تعولنى خير من عقل أعله » .

ومن أصحابك للزبد ، أنه هم بتطبيق امرأته فذكرته طول الصحة ، فقال لها : « والله ما لك ذنب غيرها » .

من أصحابك أنه سمع من صيام يوم بثمانية صوم سنة . قصاصه إلى الظهر ، وقال : « حبس من الثواب ستة أشهر ، تحسب منها شهر ومصاد » .

« اجتمعت ستمائة نادرة من هذا الطراز لكات كما أسلفنا دحيرة لا تسب دحيرة هي آداب العالم ، ولكنها لا تجتمع بطبيعتها ولا مباح من لا تسبها بالسخف والهراء كلما تناقلها العديد الأكبر من عامة الرواة ، وأصافوا بها ما يحترعونه باجتهادهم على حسب مفاركتهم ، أو ما يستلزمون به » .

كتب التى جمعت هذه التوارد المنتقاة تعد من أمهات كتب الأدب إلى أم شيلة العباسية ، ثم يعرض لها الإسفاف والابتذال فيما بعد ذلك من « شيوخ والديوع أو من جراء الهزال والاضمحلال فى دور المهانة والجمود » .

« أشهر هذه الكتب نشر الدرر للأبى والأغاني لأبى الفرج الأصفهاني ، « مسرات لأبى القاسم الراغب الأصفهاني ، والبيان والتبيين للجاحظ ، « ذخائر لآل من قبة وأخبار الحمقى والمعتلين لآل الجورى والعقد الفريد « مسرته وهوات الوفيات لآل شاكر وذيل زهر الآداب للحصرى والمستطرف « شمس وثمرات الأوراق لآل حجة الحموى ، وحلبة الكميت للواجى . ثم « الطبقة كتاب الفاشوش فى حكم قرقوش لآل عاتى وكتاب مضحك « لآل سودون المجهون ، ويستطرد الإسفاف بعد ذلك إلى القرن الرابع « بحرة وفيه ظهرت مجاميع النوادر المسوية إلى جحا مقولة عن إحلاط « من كل أمة تناقلت هذا الاسم بين الأمم الشرقية » .

الأدب الجعوى بعد النهضة الشرقية

« زدهر الأدب الجعوى بعد النهضة الشرقية الحديثة . فظهرت المؤلفات « من مباح شتى ، يقتبس بعضها من توارده للأغراض التعليمية ، « بعضها هذه « الشخصية » لأغراض النقد الاجتماعى على طريقة « شحاتى والحكمة التى تجرى على ألسنة المجانين ، ومعنى بعضها

بالإحصاء التاريخى والاستقصاء فى تدوين الروايات والأسانيد ، ويرجع هذا الازدهار فى الأدب الجعوى بعد عصر النهضة الحديثة إلى العناية بإحياء الآثار السلفية كما يرجع إلى شيوع النقد الاجتماعى بأسلوب الجدل والمفكاهة .

ولقد نبهت النهضة الشرقية أناساً من الأجانب المقيمين فى الشرق . كما نبهت الشرقيين . إلى استكشاف طبائعه وملائحه وألوان شعوره وتفكيره ، فكان من هذه الألوان البادية هذا اللون من المفكاهة الشعبية التى تدور حول « شخصية جحا » الساذجة و « بواره » التى يند ولها لشعب للحر منها أو للحر بها ، وقام اثنان بترجمة نوادر جحا إلى الفرنسية باسم « كتاب جحا الساذج » هما البرت عدها والبرت جوسيبوفيشى Albert Ades and A. Josipovitch الذى كان من موظفى القصر الملكى وعن حضروا بعض الدروس الإسلامية فى الأزهر الشريف ، وكان مولده بالقسطنطينية سنة ١٨٩٢ فكانت له معرفة بالتركية والعربية واطلاع على نوادر جحا من مصادرها المختلفة ، وأما صاحبه البرت عدها فقد ولد بالقاهرة - سنة ١٨٩٣ - وتعلم فى مدارسها وحضر بعض الدراسات الأزهرية ، وأمكنه أن يفهم التوارد فى لهجتها الشعبية أو لهجتها المعربة الشبيهة بالشعبية

وقدم الكتاب المترجم إلى قراء الفرنسية الأستاذ أكتاف ميربو Mirbeau بكلمة موجزة كتبها فى أثناء الحرب العالمية (٢٥ أكتوبر سنة ١٩١٦) وقال فيها إن المؤمنين لا يشرحان شيئاً لأن الحياة لا تشرح نفسها وما كان « جحا » إلا قلدة من الحياة الشرقية تعيش ولا تحتاج حيث تعيش إلى تفسير ، « مآلوفات الحياة الدارجة بشير بحث ولا انتقاء » ، وإذا بدأ فيها أثر من القراءة فإنما ترجع هذه القراءة إلى اختلاف الجيل مع تشابه الشخصيات وتكرار أمثلها فى كل جيل

وما كاد هذا الكتاب يظهر بالفرنسية حتى ترجم إلى اللغات الأوروبية وأقبل عليه المثقفون لأنه معرفة يستزيدونها كما أقبل عليه عامة القراء لأنه يروقهم بمفكاهته ووفائع الحياه الممتلئة فيه ، ومن هذه التراجم ترجمة بالإنجليزية ظهرت باسم جحا الأحمق Goha the fool أو جحا الغر « البسيط » . . .

وأخر ما ظهر من الكتب الأوروبية عن جحا كتاب مغامرات بنخارى الذى ألفه الكاتب الروسى ليونيد سولفييف Leonide Sooviev (سنة ١٩٤٨) وترجمه إلى الإنجليزية تاتيانا شيبونينا Shebunina فى هذه السنة ، « نخذ المؤلف من شخصية جحا فى هذا الكتاب داعية جوالاً يضطرب فى البلاد

والمصحف . والأرجح أن الاسم مصحف من اسم بنشور Pontus
 Pite أو بيلطس . أدى حدث في عهد ولايته محاكمة السيد المسيح فقد
 كانت هذه الشعصة ، محور السخرة والإهانة في المسرحية الدينية التي
 كانت تمثل محاكمة السيد المسيح وتعرضُ عُذابه في صورة رمزية يقابلها المطارة
 بالتهكم والاستهزاء . ولقد يكون وصف القرقور بالسواد كما يسمى باللغة
 التركية صفراً فيه . في هذه المسرحية ، السواد ، أو مأجود من الستار الأسود
 الذي يحجب لادس والألاعب . وهكذا تنتقل الشخصيات والمخاطب بين
 الشعوب ثم تنعكس في كل أمة مصانفها بعد بيان وسائل الانتقال
 وأن كان مصدر هذا الشئ ، فهو باق إلى اليوم بمعنى الناس إلى حكمانه
 متفرعة متعددة ، متطورة ، كما يقول بمصطلحات زماننا ولقدما يعنيهم أن
 يتجهوا إلى حلها القديم



ومن أطوار الشعوب في تناقل العيون أو الموضوعات العبية أن بهمة الشرق
 سهبت الأوروبيين إلى تراث الشرقيين القديم وأن عناية الأوروبيين سهبت إليه
 أساساً من الشرقيين الذين يشكلون بالملحات الأوروبية ، موضح الأستاذ عسكري
 نحاس باللغة العربية كتاباً سماه : تأملات ابن جحا ، يحاكي فيه ابن أبي
 بالحكمة لآرحة والدعابة الحكيمة ، ومن أمثاله قوله عن المرأة : أنها خلقت في
 الرجل لأانية لتحقيق مطالبها ، وأن : امرأة واحدة تسحت عن سبعة ، ولكن
 امرأتين مع سحشان عن مربية ، وأن : الرجل الشرير في عبي المرأة الخائنة هو
 السمكة التي ترفض الخطم ، و : أن المرأة تعدت رجلها عقاباً له على أنها شئ
 لا عني عنه سبه .

وربما جحا بعد به هذا جملة وأدناه جملة ، ولا تقلقهم جميعاً قالوا - بعد -
 كلمتهم الأحدة باللغة العربية ، و التركية ، أو بسائر اللغات ، فإنهم خالدين
 مخلود اسمن أسخية من كل قبل

وكرامة للمقام ، ويضي هذا وهناك لبشهر
 بالفسراني وتشمس لها أسباباً من الهباء
 بيتاً الأرض والسما ، ومثال هذه المماذير التي
 محاسن استوفوا جحاً على باب مدينة ليلند
 فيها ، فلما قال للمكاسين أنه لا يقصدهم
 بالصرية ضممين : إحداهما للممل للريح
 لأن من يتجه مع قوم يوزدهم بغير مراه

على نوافر جحاً لأنها وافقت عدهم فادج من
 ساقون حكايانها الصحيحة أو الوصوة . وربما
 إلى الغرب بالقتل والرواية الشعبية والأطلاع
 ترجمتها ، ولا يبعد أن يكون كثير من هذه
 جيرة ملافة الذين يتسمون من لسمهم
 شخصية جحاً تسمى عندهم جهان ، وهو
 الأسماء العربية التي يتسمى بها أبناء تلك
 باللغة الإيطالية فلا تخاله من قبل هذا
 لأن مادة حوكا ، عني التراج والمصحك
 والسكوبية ، ومنها كلمة : الحوكدا ،
 نسمة ، من عمل ليوناردو دانسي المعان

صالت في العرب تشه شخصية : جحا ، في
 مائة تارة أخرى ، ولا تسي في هذه المجالة
 إلى يومنا هذا عواماً للصحة سيارة باسم
 punchinello من مقاي التمثيل الصامت
 معروف عدداً صندوق الدمي والألاعب
 أدت إلى أصلها القديم . فمن الشائع في
 مصحف من اسم مخرج سحيت يسمى
 معروف في القرون الوسطى ثم اتخذوا اسمه
 خاصة والمشابهة في اللفظ مع الاحتزال

خلاصة تاريخية

والخلاصة من الناحية التاريخية - وهي أقل النواحي ثبوتا وأهمية في هذا البحث - أننا نستطيع أن نتقبل أبا الغصن جحا كما ذكره الميداني في أمثاله كأنه شخصية تاريخية لا غرابة في وجودها ولا داعية للشك في إمكان وقوع النواذر المنسوبة إليها ، فإن الذين يشبهون أبا الغصن هذا في غفلته وسهواته يوجدون في كل بيئة ، وفي كل زمن ، وإن تنوعت المناسبات والأحوال التي تكشف للناس عما طبعوا عليه من الغفلة ..

ويلحق بأبي الغصن أناس على شاكلته لم يشتهروا مثل اشتهاره ولم يسمع بهم الأمراء والولاة كما سمعوا باسمه وخبره ، نيطلق الناس عليهم اسم جحا نبزا أو تشبيها أو تغليبا أو تفيها بالحكاية النادرة التي تدل على علم بأخبار السلف إذا رويت عن مشهور متقدم ولا تدل على شيء من ذلك إذا رويت عن سكان البلد في ساعتهن الحاضرة ، ويعمل الوضع و « القفش » عملهما أثناء ذلك فيجتمع من النواذر الجحوية ما تصح نسبتا إلى شخصية قديمة أو حديثة وما تصح نسبته إلى أحد غير وضاعه ومخترعيه من الرواة والمفكرين .

ونحن في صبرنا هذا قد شهدنا نشأة أمثال هذه الشهرة الصحيحة والمختصرة وشهدنا تطورها من مبدأها إلى مصيرها بعد عشرين أو ثلاثين سنة . وكان « الفضل » في ذلك للصحافة الأسبوعية المضحكة التي كانت تقوم في أوائل القرن العشرين على « القفش » والملحة المختصرة . ويعلم الكتاب والقراء المستمعون أنها تلفيق يعتمد على أصل ضعيف . وأنها براعة في صناعة « القفش » ويتنافس فيها أولئك الصحفيون ، وهم ولا ريب خلفاء النعماء الذين كانوا يتولون هذه الصناعة في صدر الدولة الإسلامية وما يليه من العصور قبل نشأة الصحافة .

وأما الأديب « إبراهيم الدباغ » يأكل في مأبة فلم نلاحظ عليه شيئا من النهم الذي اشتهر به بين المتنصرين ، وسألنا صاحبا له فقال أنها أكلة واحدة أو أكالات قليلة بعد جوع أكسبته هذه الشهرة الباطلة . وأنت تعلم أنه كثير السخرية والاستهزاء بالأدعياء من محترفي الأدب والصحافة الذين يتزاحمون على مجالس الأغنياء . فانتهزوا « فرصة » هذا النهم الموقوت للقصاص والتوقيعة وملأوا الصحف الأسبوعية « بالقفشات الدباغية » حتى أصبح « الدبغ » كلمة في اللغة الدارجة تطلق على النهم ، وقد ظلت هذه الكلمة تحمل معناها

« نعتار إلى يومنا هذا وأصبحنا نسمع من يقول عن أحد من الناس أنه
« وهو لا يعرف أصلا لهذه التسمية .. »

« حكينا ما رأينا من الشيخ الديباغ وما سمعناه من صديقه لصاحب
« لصحف الأسبوعية التي أولعت « بالقفش » له والتفريق عليه . فقال :
« جمع به فتدعوه إلى طعام » فلما يكف الرجل يده عن الأكل وهو مشتاق
« يحض كلامنا ويعز بالخاضرين فيقعون في الشرك » ويندمون حيث
« ندم »

« ونحن معاصرون لصاحب الشهرة ومن شهره بها - أي القولين
« أي القفشات يعتمد على الواقع وأبها يستمد من الفكاهة والخيال .. »

« أشهر رجل آخر في تلك الأونة بالميلفة في الادعاء - أي بالفخر كما
« في اللهجة البدوية - وكان حقا يدعى ويبالغ في دعواه ، وكان ظريفا
« تخلص من المأذون إذا امتحن من يتعقبه بالنقد والسخرية ، وكان إلى
« على يسار طمع فيه طلاب الاشتراكات للصحف الأسبوعية في ذلك
« متلات هذه الصحف بدعائيه وبالدعوى المقيمة عليها مع التوسع
« وأصبح اسمه كذلك علما على « الفخر » يكاد يلغى هذه الكلمة
« متأصلة في الأقاليم والأقوال . »

« مرة في نشأة النادر الجموية سواء صحت نسبتها أو لم يصح منها إلا

« جاء في الكتب العربية من هذه « الجمويات » فلا غرابة في نشأته .
« فيه من كل « جه إلا في التناقض بين الغفلة والتغافل في أخبار
« حد . ولا سيما الأخبار التي تتحقق صفات صاحبها ويثبت أنه من
« سلووين الذين لا يحسن تدبير « التغافل » ولا تحي منهم الحكمة إلا
« مقصودة في القابل من الأحيان . »

« حصر الدين التركي

« حصر الدين التركي المسمى بالخوجة نصر الدين فالنسب إليه بملا مشات
« وجد أولينا كتابا بالتركية مطبوع في الاستانة بالحروف الدقيقة (سنة
« ١١١١ هجرية) يقع في مائتي صفحة وخمسين وخمسين ولا يستعب كل ما نسب
« الخوجة نصر الدين من نواذر الحكمة أو نواذر الغفلة والبلادة . »

« لا شك فيه أن كثيرا من هذه النواذر وضعت بالتركية ولم تنقل

عن العربية ، وأنها ترجع إلى شخص عاش في بلاد الترك ولم تكن نشأته على
الأقل في بلاد أخرى .

« ويدعون إلى الجزم بذلك أن النواذر تشتمل على جناس يوجد في الألفاظ
التركية ولا يوجد في ألفاظ لغة أخرى ، كالجناس بين جل وكل في نادرة
المسامير والخضوط مع لفظ الكاف كما تلفظ الجيم في بعض الكلمات ،
والجناس بين جمع أيوب وكلمة « ايوب » يعني حبل في نادرة يحذر فيها
الخوجة نصر الدين أبناء بلده من الإفراط في تسمية أبنائهم باسم أيوب ، أو
كالجناس في الاصطلاح على تسمية المطر بالرحمة وقولهم عن نزول المطر أنه
رحمة نزلت « رحمة أنور » من عند الله .

« ويدعون إلى الجزم بتأليف الترك لكثير من هذه النواذر أنها تذكر المدن
والأقاليم في آسيا الصغرى وما جاورها بخصائصها المشهورة إلى هذه الأيام .. »

« ويرجع لدينا أن نصر الدين شخصية تركية غير منقولة عن الأم الأخرى أنه
نشأ في آسيا الصغرى حيث تنتشر جماعات الدراويش الدنييين من قبل
الإسلام ، وحيث يعهد في أحاد من هؤلاء الدراويش أن يخلطوا خلط المجاذيب
ويفتوا فتوى العلماء والفقهاء ، وأن يلوثوا بظواهر التخليط أحيانا بغية السلامة
من بعض الحكام المخيرين على البلاد ، وقد يلوث بهم عامة الناس إيمانا
بكراماتهم وشفاهتهم ليندفعوا عنهم مظالم الطفلة ، فيحتلون على استرضاء
الظالم بالفكاهة أو بالوعظ المقبول أو بالتخليط الذي يناوون به ما طلبوه من
الحاكم إذا أضحكوه واستطاعوا في وقت واحد أن يلمسوا في نفسه موطن
التقوى والخوف من الله ومواطن الرضا والسرور .

« والخوجة نصر الدين مشهور بكراماته وكرامات ضريحة في مقبرة « أق شهر »
بعد وفاته بزمان طويل ، ويذكر الناس أخصا حيكه فيضحكون منها ولكنهم
يحولونها إلى حالات أهل الجلب بين عالم الأسرار وعالم العيان ، أو يحولونها
إلى حب التنية والاحتبال على الموعظة الحسنة بالأسلوب الذي يؤدي إلى مرماه
ويعفيه من عيبه . »

« والشك الأكبر إنما يعرض لهذه السيرة من أطباق النواذر الكثيرة فيها على
اجتماع الخوجة نصر الدين بتيسور تلك أثناء غزوته لبلاد الروم ، والمشهور أن
الخوجة نصر الدين توفي سنة ٦٧٣ أو سنة ٦٨٣ هجرية ، فهو قد توفي قبل
مولد تيمور لنتك بأكثر من نصف قرن ، ولا يغفل أنه راه وحفر مجالسه إلا إذا
كانت وفاته حوالي سنة (١٤٠٥) التي توفي فيها تيمور . »

فمنذ القرن السادس للهجرة (والثاني عشر للميلاد) جعلت المروقة من ضرورة الكرامة وأصبح المعارف الأريب من يحتال على زده بالبحون والمناادمة وتصحاح والتشبيه بالجهلاء وأصحاب الجلود من ضمايف المعقول ، وشاخ القول و بحرفة الأدب ، و متبقة عن القول بؤس العالم الأديب . .

في أوائل هذا العهد ظهرت مقامات الحريري التي يجمع بطلها بين المؤثر والبلاغة والبراعة في الحيلة ، وفيها تواتر التنظيم في شكوى الزبائن مقرونة بشكوى الأديب والمحب من قسمة الأرزاق ، وهذه هي الناحية الأدبية من تلك الشكايات وتلك الحيل والإشائية أو الفنية ، وأما الناحية الاجتماعية العامة فأتتها هذه التواتر التي تمتد بالثبات ولا تظهر فيها براعة السبب الأريب إلا في الاحتجال على أكله أو في الاحتجال على دفع المحتالين للطامعين في قوته الهزيل .

وبين قصص جحا قصة من تقسيم الأرزاق يسأل فيها جحا من نذيره للقسمة هل يريدون قسمة الله أو قسمة العبيد . فلما حكموه في توزيع المخطوط بينهم على قسمة الله أعطى هذا ما لم يعط ذلك وفارت بينهم أكبر المغازلة في الأقسام ، وما كانت هذه التواتر لتشجيع بين العامة من رواية الجحوبات ، لو لم تكن لها مصانرها التواترة من بعيد .

على أن التواتر الطامعية ، تتم على وجه خاص من سلاجة في الحيلة فربح نستيتها إلى طوائف المحرومين من الجهلاء الذين يتأسسون بذوى المعروفة والتقى ولا تسمعهم القدرة على الاختراع . فغاية جهلهم هذا الذي ابتدئوه وأحبوا تعظيمه وتحقيق الأسوة فيه ينسبته إلى المعارفين ، وجاءت هذه التواتر الطامعية مجازية للمقامات الإنشائية والمقصائد المنظومة في شكوى الزبائن والمحب من قسمة الأرزاق ، ولم يعرف هذا كله في عصر من عصر الشرق كما عرف بعد القرن السادس للهجرة ، وبعد إدمار الدولة العباسية ، واحتياج تسمو لنك للملوك الشرقي من تخوم الصين إلى شواطئ بلاد الروم .

ونودح الآن جحا والجحوبات ونحن نحمد للمضاحك المضحك ، أنه أعار اسمه عامدا وغير عامد لباب من الدراسة النفسية والاجتماعية لم يكن مسورا لنا بغيره ، ولئن يبخسه شيئا من الحمد أن يكون على وفاق مع التاريخ أو على الفراق من كل تاريخ .

ولا يسهل التعرف بين هذه الروايات إلا على فرض من فرضين : أحدهما خطأ المتأخرين في تعيين السنة التي توفي فيها الخوجة نصر الدين ، والثاني أن تيمور لنك لقي شيئا آخر على شاككة الخوجة نصر الدين فتناخلت الروايات وعلفت البقية الباقية منها بالأسم الشهور .

وأيا كان صواب النسبة في بعض التواتر التي تحمل الخلاف فيها كجملة من التواتر لا اختلاف في وضعها بعد عصر تيمور لنك وبعد العصر القروص للخوجة نصر الدين . وهي التواتر التي ولدت فيها الإشارة إلى المختصرات الحديثة كالتبليغية وساعة الجيب ، أو كتواتر التي تكذبها وقائع التاريخ العثماني وتاريخ آسيا الصغرى على الخصوص .

ومن الواجب أن نسلم - بداية - بوضع العدد الأكبر من التواتر التركبة أو نقلها من رواية الأم الأخرى ، لأن جمهورها كلها من رجال واحد أمر لا يسهله العقل ولا يورى له ظهير في السوابق التاريخية ، فلو أن هذا الرجل عاش ليشخلق تلك التواتر وعاش الناس معه ليسجلوها لما اجتمع من أمساكيه تلك اللغات التي خلا الجملدات ، ولا استطاع أن يلقى بما فيها من نقائص العقلية والخلقية . فضلا عن نقائص الجغرافيا والتاريخ .

فوضع العدد الأكبر من التواتر أمر مفروغ منه لا يجوز أن يبحث به الختج على بطلانها واختلافها من أصولها ، وإنما هذه التواتر الموضوعه أصبح في الدلالة على أزمستها وبنائها من وقائع لسجلات والأرقام .

قبل أن بين الجليل الرحيب والمضحك للتريب قيد شعرة أو لغة حين ولا شك في هذه الحقيقة من الوجهة النفسية كما تقدم ، لأن الجمهور يتحول فجأة إلى الفضح بظاريه من طوارئ التغيير والتبديل التي تتعاقب في أيام النصر والهزيمة والقيام والسقوط بين الجبايرة وأصحاب الدولات .

ولا شك في هذه الحقيقة - أيضا - من الوجهة التاريخية إذا رجعنا إلى عصر تيمور لنك وأشباهه في تواريخ الشرق والغرب ، فليس أحفل بالأضاحيك من عصر الغلب وعصور الشقاء والأحوال . وظاهرة أخرى من الظواهر الناطقة في التواتر الموضوعه تنبئنا عن زمانها الذي نشأت فيه وشاخ اختراعها بين جميع الطبقات .

من مؤلفات عملاق الأدب العربي الكاتب الكبير عبدالمعطي معمر

- ٣٦ - الفتاة العربية
- ٣٧ - اللغة الشامية
- ٣٨ - شعراء مصر وبناتها
- ٣٩ - إشارات بجمعات
- ٤٠ - حياة قلم
- ٤١ - خلاصة اليوم والشور
- ٤٢ - ملعب قوى السمات
- ٤٣ - لا شيوعية ولا استثمار
- ٤٤ - الشيوعية والإنسانية
- ٤٥ - الصهيونية العالية
- ٤٦ - أسوان
- ٤٧ - أنا
- ٤٨ - عبقرية الصديق
- ٤٩ - المديقة بنت الصديق
- ٥٠ - الإسلام والمضارة الإنسانية
- ٥١ - مجموع الأحياء
- ٥٢ - الحكيم الملائك
- ٥٣ - يوميات جزء أول
- ٥٤ - يوميات جزء ثاني
- ٥٥ - عالم السدود والقيود
- ٥٦ - مع عامل الجزيرة العربية
- ٥٧ - مراقب وقفايا في الأدب والسياسة
- ٥٨ - دراسات في المذهب الأدبية والاجتماعية
- ٥٩ - آراء في الأدب والفنون
- ٦٠ - يهوت في اللغة والأدب
- ٦١ - خواطر في الفن والقصيدة
- ٦٢ - دين وفن، فلسفة
- ٦٣ - فنون وشجون
- ٦٤ - قيم ومعايير
- ٦٥ - ديوان في الأدب والشفقة
- ٦٦ - عبد القلم
- ٦٧ - روبرت وحيد

- ١ - الله
- ٢ - إبراهيم أبو الأنبياء
- ٣ - مطلع النور أو طالع البهجة الحميدة
- ٤ - عبقرية محمد ﷺ
- ٥ - عبقرية معمر
- ٦ - عبقرية الإمام علي بن أبي طالب
- ٧ - عبقرية خالد
- ٨ - حياة المسيح
- ٩ - ذو النورين عثمان بن عفان
- ١٠ - ضرور بن المصطفى
- ١١ - سارية بن أبي سفيان
- ١٢ - دامي لسماء بلال بن رباح
- ١٣ - أبو شهيد، الحسين بن علي
- ١٤ - ناطقة الزمراء والمطهرين
- ١٥ - هذه النجدة
- ١٦ - إبليس
- ١٧ - جحا الضاحك المضحك
- ١٨ - أبو نواس
- ١٩ - الإنسان في القرآن
- ٢٠ - المرأة في القرآن
- ٢١ - عبقرية الإصلاح والتعليم الإمام محمد عبده
- ٢٢ - سعد زعزل وزعيم الثورة
- ٢٣ - روح عظيم المهدي غاندي
- ٢٤ - عبدالحسين الكواكبي
- ٢٥ - رجعة أبي الملاء
- ٢٦ - رجال عرفهم
- ٢٧ - سارة
- ٢٨ - الإسلام دعوة عالمية
- ٢٩ - الإسلام في القرن العشرين
- ٣٠ - ما يقابل من الإسلام
- ٣١ - حقائق الإسلام وأبطال قصوده
- ٣٢ - التفكير فريضة إسلامية
- ٣٣ - المناقشة القرآنية
- ٣٤ - المديونية في الإسلام
- ٣٥ - أثر العرب في الحضارة الأوروبية

فهرس

٣	الكلمة والفصحى
٣١	لماذا فصحى؟
٤٣	ثلاثة آراء في الفصحى
٥٩	الفصحى في الكتب الدينية
٦٧	الإنسانية والفصحى
٨٥	جما ٠٠ ونواذره
٩٣	٦٠ نادرة
١١١	موازن غير محكمة
١١٥	جما في الأدب
١٢١	خلاصة تاريخية